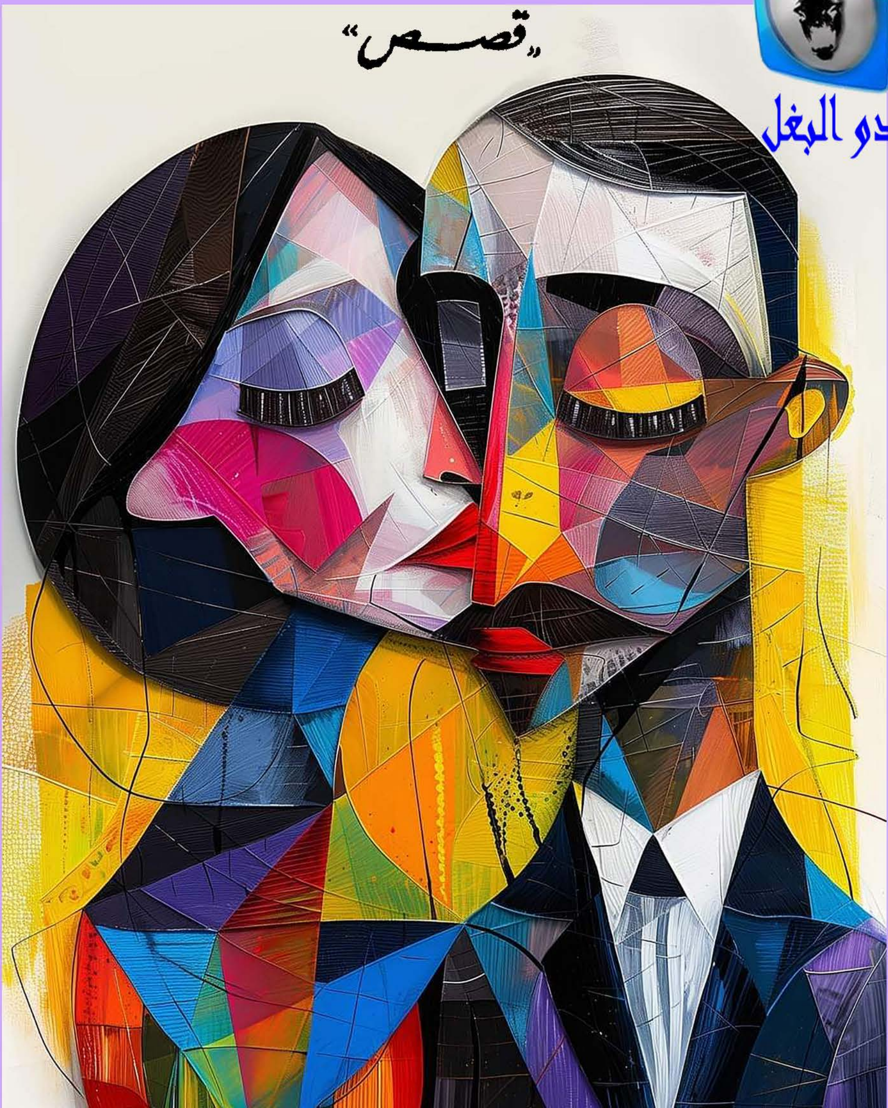
جورج سالم

حوار الصم

"قصص"



صممت الغلاف ضحى القدسي

جورج سالم

حوار الصم

«قصص»

منشورات وزارة الثقافة

دمشق ـ ۱۹۷۲

لم تكن غير اصبع صديق عزيز عاد بعد رحلة طويلة .
ولكنه ، إذ أشارت اليه ، شعر كأنها تمتلك قوة غريبة ، قوة سحرية . ومع أن هذا الصديق لم يقل له ، رغم انقضاء قسم كبير من السهرة ، سوى هذه الكلمات :

ـ وأنت ؟ ما شأنك ؟

إلا أنها كانت كافية لإيقافه عن الدوران .

هل كان يدور ؟ هل كانت الارض تدور به ؟ أتراه أسرف في الشراب ؟ انه واثق انه لم يذق الخمرة الليلة ، فكبده لم تعد تتحملها ، قال له اصدقاؤه الثلاثة :

ـ لا بد ان تشرب ولو كأساً واحدة .

قال لهم :

ـ إن الخمرة تهد قواي .

ألحوا عليه فاعتذر . قالوا له :

ـ امتنع عن الشرب ما شئت ، ولكن الليلة مستثناة .

أصر على تجنب الشراب . قرع الأصدقاء كؤوسهم بعنف

قال زميلهم المهندس :

ـ لنشرب نخب عودة زميلنا ..

نظر الى وجوههم فرأى فيها فرحاً طارئاً . الزميل القديم عاد من البلاد البعيدة ، وبعودته تنبعث الذكريات الماضية . ذكريات مشتركة بعد عهدهم بها . أين يبتدىء شريط الذكريات ؟ أ إبتدأ في الجامعة ؟ لا ، في المرحلة الثانوية ؟ أبعد من ذلك. منذ الطفولة؟..

قالوا انهم سيحتفلون الليلة بعودة هذا الصديق فيسهرون معه ويأدبون له مأدبة صغيرة متواضعة .

سأل صديقه الموظف في احدى الوزارات وهو يحادثه على الهاتف :

ـ وأين قررتم أن تجتمعوا ؟ في احد المنازل ؟

ـ كلا ، رأينا انا وصديقي المهندس ، ان ننأى عن جو المنزل ونختار مطعماً صغيراً هادئاً ، هل تعدني بالمجيء ؟

ـ نعم .

ـ أعرف انك تتهرب في كثير من الأحيان ، ولكنك ، في هذه الليلة، ستأتي حتماً .

ـ سأحاول .

ـ بل ستأتي . ألم تشتق الى زميلنا ؟

ـ بلى .

وضع الصديق الموظف السمّاعة وهو يقول :

ـ سننتظرك ، لا تتأخر .

يحمل النادل صحون الطعام ويضعها امامهم على نحو آلي سريع . قال لنفسه : « لا تفرط في الأكل ، واذكر دائماً كبدك المريضة » . فسحب يده عن قطعة اللحم التي همّ بتناولها .

الصديق الموظف الجالس الى جانبه لا يفتأ يحدثهم عن نفسه ، يصغي اليه فترة ويشرد عن سماعه فترات . فماذا يفكر الآخران وهما صامتان يصغيان ؟ لقد توقّفا عن تناول الطعام ، وراحا يرشفان جرعات صغيرة متقطعة من كأسيهما . لم يستوعب شيئاً مهماً مما قاله ، كان يتحدث عن زوجه الولود . انه دائم التذمر والشكوى. النفقات الكثيرة ، والمرتب الذي لا يكاد يكفيه . وأسرته التي يتزايد عدد افرادها سنة بعد سنة . حديث قديم معاد . يكفي ان يلتقط كلمة او كلمتين منه ليدركه . لطالما سمعه مرات ومرات .. كيف يستطيع هذا الزميل الوافد حديثاً ان يفهم ذلك وهو لمّا يدخل الحياة بعد . راح يراقب الزميل العائد ، فرآه يهز رأسه متأملاً . كان يريد ان يقول شيئاً ولكنه لم يشأ أن يقاطعه . التفت اليهم زميلهم المهندس ، كان يتململ في جلسته . ما باله هو الآخر ؟ وعمّ يريد ان يتحدث ؟ قدّر سلفاً انه سيعود الى النغم نفسه ، الى

نغمه القديم . كان ينتظر ، شارداً ، ان ينهي زميلهم الموظف كلامه ، ليشرع في الحديث ، ولما رآه يهدر كالشلال لم يجد بدّاً من مقاطعته ، وهو يعيد الكأس الى الطاولة :

ـ أما انا فتقوا انني انفق نصف مرتبي تقريباً في كل شهر ..

قال في نفسه : « آه ، حسناً ! سيحدثنا حديثه القديم » وعاد الى شروده .

منذ زمن بعيد وهو يضيق ذرعاً بأمثال هذه السهرات ، ويشكو مما يدور فيها من احاديث اتقنها خير اتقان . عم يتحدث هذا الزميل المهندس ؟ وهل لديه شيء جديد يقوله ؟ فليتحدث ما شاء . انه ليعرفه ، فهو يحب الكلام ولكنه لا يطيل فيه . وتقوقع مرة ثانية على نفسه . ماذا يعنيه من وضع زميله ؟ وماذا يعني الآخرين وضعه ؟ التقط بضع كلمات عابرة ، وكانت هذه الكلمات كافية . انه يحن الى الأولاد ولم يرزق حتى الآن ولداً ... خمس عشرة سنة مضت على زواجه ... وأسهب في الحديث عن الأطباء الذين استشار ، والأدوية التي تناولها هو وزوجته ... كانت نظرات زميلهم الموظف تحمل كثيراً من المرارة ، حاول ان يقاطعه ، لعله كان يريد أن يقول دعني أكمل حديثي عمّا أعانيه من شظف بسبب الأطفال ، ولكن المهندس كان سارداً في كلامه كتيار من ماء مندفع .

قال له الصديق الوافد :

ـ لست استطيع نفعك ، فهذا لا يدخل في اختصاصي .

وهز المهندس رأسه ، قال :

ـ نعم ، أعرف ذلك .

أهمل زملاءه و كفّ عن الاصغاء الى مـــا يقوله المهندس وراح يختلس النظر الى شخص كان يجلس وحده في مكان منزو بعيد عن طاولتهم . نادى الشخص الغريب النادل بعد فترة . لم يفهم ما دار بينهما من حديث الا أن النادل عاد بعد لحظات وهو يحمـــل مذياعاً صغيراً وضعه على طاولته . عبث الشخص بمفتـاح المذياع فانطلقت أغنية صاخبة ، فسارع يخفف من حدة الصوت . جذبته الأغنية ففصلت بينه وبين اصدقائه ، ثم تعلّق بصره بالمذياع وراح يفكر فيه : « يكفي أن تحرّك المؤشر حتى تنطلق أغنية أو نشرة أخبار او برنامج ما ، كل محطة منفصلة عن الاخرى ، تهدر وحدها ، وما من محطة تصغي الى غيرها » . قال في نفسه : ماذا لو انطلقت كلها جميعاً تذيع في آن واحد بصوت مسموع ؟ وبحركة لا شعورية وضع يديه على أذنيه وصرخ :

ـ يا للهول !

قال الصديق الوافد يخاطبه وهو يبتسم :

ـ ماذا ؟ هل آذاك صوتي ؟ فصممت أذنيك عني ؟

وراح الجميع يضحكون .

لم يدر بماذا يجيب ، فاكتفى بأن راح يضحك معهم .

يبدو أن صديقهم كان يتحدث عن مشاريعه . التقط بعض جمل مما يقول ، واكتفى بها : سيفتتح مستشفى .. المرضى والمصابون كثر .. سيبيع حصته من دار خلّفها أبوه . . سيشفي المرضى . . سيستدين . . سيعمل . . سيبني . . سيهدم . . .

نظر الى الشخص البعيد وهو يصغي الى أغنية هادئة عثر عليها بعد بحث طويل في ركن من أركان المذياع . . . أصغى اليها معه ، على خفوت صوتها ، وسرعان ما طغى صوت الأصدقاء الثلاثة على كل ما عداه ، فغابت الأغنية ، ثم طغى على ذلك كله شجار حادين رجلين كانا يجلسان على بعـــد خطوات منها ، كانا طوال السهرة يشربان ولم يبدر منهما أي صوت او حركة ، وها هما فجأة يتشاجران ويمسك أحدهما بخناق الآخر ، ويتدخل صاحب المطعم بسرعة ، ولا يلبثان أن ينصرفا . وحين مرّا بجانبه رأى أن عيني أحدهما مغرورقتان بالدمع .

أشار الصديق العائد من بلاد بعيدة اليه باصبعه ، وقال له :

ـ وأنت ؟ ما شأنك ؟

كانت هذه الاشارة أشبه شيء بتيار كهربائي سرى فيـــه بغتة فراح يرتعش . قال له :

ـ ليس عندي ما أقوله . انني أصغي اليكم .

ثم أضاف يخاطب الأصدقاء كلهم :

ـ لم يذكر أحد منكم سنوات الدراسة التي قضيناها معاً بحرف .

فلم يجيبوا . وعاد كل منهم يتحدث فيضطر الآخر الى مقاطعته . قال في نفسه : « يا للساذج ! » : ثم أضاف : « لعلني أصبت إذ لم أحدثه عني ، فما أراه قادراً على استيعاب ما بي » .

في هذه اللحظة ، بالتدقيق ، تحرّك المطعم . عجباً ، لم تتحرك الطاولة التي كانوا يتحلقون حولها ، بل تحرّك المقهى كلّه يميناً ويساراً . وفرك عينيه ، أهو ناعس ؟ أم ثمل ؟ كان موقناً أنه ليس وسنان ، وأنه لم يشرب جرعة واحدة من الخمرة . قال :

ـ لا بدّ ان هـذا زلزال خفيف : ولسوف يتوقف بعد لحظة .

لكن حركة المقهى لم تتوقف كما قدّر لها . كان هناك شيء ما يفوق طاقته في الفهم والادراك ، لم يعرفه ولم يستطع أن يجد له تفسيراً . ومع ذلك فقد كان المقهى يترنح وتزداد حركته شيئاً بعد شيء .

وفي أقل من لمح البصر وجد نفسه مع اصدقائه وحدهم . لقد انفصلت الأرض التي يجلسون عليها مع الطاولة التي أمامهم عما حولها

من أرض المقهى ، وراحت تسير بسرعة . إلى أين يمضون، و كيف السبيل الى ايقاف هذه الظاهرة ؟

تطلع إلى ما حوله فلم يبصر شيئاً . كانت الظلمة قاسية شاملة . في مكان بعيد جداً من السماء نجم صغير لا يكاد يرى ضوءه. فصاح :

ـ هل صرنا في العراء ؟

زكمته رائحة غريبة لا عهد له بها في بلدته . واستجمع ذهنه، الا أنه لم يتعرفها الا حين سمع صوت الأمواج ... الأمواج تحيط بهم من كل صوب ، انهم في البحر اذاً . وراحت الأمواج تدفعهم دفعاً حثيثاً .

حينذاك الجأه الخوف والدهشة الى أن يلتمس أيدي اصدقائه ومدّ يده الى أقرب صديق كان يجلس الى جواره يبحث عنه ، الا أنه لم يستطع أن يمسك بأحد . فندّت عنه صرخة عنيفة عالية :

ـ ولكن أين أنتم ؟ أين أنتم ؟

فلم يجبه صوت انساني ، وخنق هدير الأمواج صراخه . خطر له اذ ذاك أن ينهض فاصطدم رأسه بجسم صلب قاس ، ومع ذلك فقد صمّم على الوقوف والتحرّك . وسرعان ما ظهرت له سلالم هديئة راح يصعدها ويهبطها كالمحموم . فادرك ، آخر الأمر ، أنه في

سفينة خالية . وكانت الى ذلك تسير بسرعة مدهشة، وحولها تتحطم الأمواج ويتصاعد الزبد ، ووقف على سطحها الذي اهتدى اليه بعد طول بحث ونظر الى الأفق البعيد . كانت طلائع الفجر تبزغ وقتها . فحدّق في زرقة البحر ... كانت هناك سفن ثلاث أخرى غير سفينته ، وكانت كل منها تسير باتجاه، مسرعة، هادرة، لا تلوي على شيء ... وظلّت سفينته تسير وتسير ، ويتناهى اليه صوت اغنية تنبعث من مذياع ، والأمواج تحدق بالسفينة والزبد يتطاير ويعلو حتى ليكاد يغمرها غمراً بثوب أبيض شبيه بالكفن !

★ ★ ★

المنتهى

البياض يملأ المكان. كل ما حوله أبيض . الجدران والمناضد والخزائن والملاءات والثياب. لوحات بيض يتداخل بعضها في بعض، الشعور السود ملفّعة بقناع أبيض، وكذلك الوجوه . ليس ثمة الاّ العيون . عيون بنيّة اللون ، وعيون سود وزرق وخضر . عينان خضراوان أمامه هناك ، ومن الاعلى ينعكس ضوء أبيض باهر ، يضفي على البياض نصوعاً حاداً . وهذا البياض الناصع كله لا يشف عن شيء ، ليس خلفه الاّ جدران صمّ ، جبال من الحجارة تقترب منه وتبتعد عنه ، فلا يستطيع أن يلمسها أو يمسك بها .

الصمت الهائل ، الصمت المقدّس الخاشع المهيمن على كل شيء، تمزّقه أصوات دقيقة حادّة، ارتطام الملاقط والمشارط وحفيف الأصابع عليها . ومن بعيد ، من مكان مجهول يتناهى منه صوت تكتكة ساعة . صوت منتظم رتيب ، فيه رهبة ، وفيه قوّة تثير في نفسه الفزع .

أمام رجليه الممدودتين المنطاتين يقف أحد الأطباء الثلاثة .

كان يمسك بيده شيئاً صغيراً كالسلك الرفيع، لابدّ انه الطبيب الذي زرقه بالابرة قبل قليل. وعن يساره وقف الطبيبان الآخران، مرفوعة أيديهم كمن يؤدي طقوس صلاة ، ومن حولهما الممرضات . لا يلبث المشرط أن يتحرّك ، برشاقة ورهافة ، بين أنامل الطبيب كقوس كان في يد عازف ماهر ، الدم يسيل على الملاءات البيض ، ويصل الى ملتصق لحمه بالملاءة .

يشتدّ صوت دقات الساعة ويقوى ، ليس فيما حوله ساعة ، لعلها غير موجودة في المكان كله ؛ ومع ذلك فهو يسمعها ، يسمع تكتكتها تتوالى ببطء ورتابة ، تشتدّ التكتكة وتتضخّم ، وتعلو على كل صوت عداها ، يظهر الصوت امـــام ناظريه حياً متجسداً يتحرك . يقرع الأرض بسنابكه . خيول ، خيول ، تنبثق من وراء الأفق ، جحافل من الخيول ، فترسم في الأفق خطاً أسود ، يختفي الليل ويبزغ الفجر من الافق ، فجر تسوّده الخيول ، فتتصل الظلمة بالظلمة ، ويلتصق الليل بالليل . كل ما حوله أسود مظلم ، ثم ينبعث الضوء فجأة ، يلتمع في الأفق البعيد ، يشقّ الظلام والقتام . لم تكن الشمس هي التي أنارت العالم، كان ضوءاً أبيض سلّطته سيوف بيض لا عدّ لها ، والسيوف تنير الكون ، تتقدم الجحافل نصفها العلوي أبيض منير ، ونصفها السفلي أسود قاتم ، والشريط الطويل المنبسط الذي رسمته في الأفق ، ينحني ويتقلّص ، فيرسم هلالاً ، وسرعان

ما تلتمع التروس والدروع في ناظريه، يحاول ان يرفع يده الى وجهه ليغطي عينيه، فلا تطاوعه يده المسمرة المرتخية الممددة على مستوى جذعه.

قال الطبيب لزميله الواقف الى جانبه :

ـ حدق لترى.

يتطلع الى الأفق، ينظر إليه، يحاول أن يخترقه ببصره، وجه من هذا؟ جنكزخان؟ تيمورلنك؟ هولاكو؟ يحاول أن يرفع رأسه ليرى فلا يستطيع. الوجوه الثلاثة متلاصقة متداخل بعضها في بعض. تختفي الوجوه ليظهر وجه واحد، وجه يعرفه، رآه في كتاب مدرسي، هولاكو: فرسه كبيرة وسيفه أكبر، وجحافل الجيش من ورائه، ايقاع الساعة يشتد، يتزايد، تتلاحق الضربات، يقترب منه المخيف، ويقترب. ثم يسدد إليه طعنة في صدره، فيختلج. لقد جنبته الا ختلاجة حد السيف.

قال له الطبيب :

ـ ما بالك تختلج؟ أتشعر بألم؟

ثم نظر الى الطبيب البدين الواقف قرب قدميه.

ـ كلا لا أشعر بشيء البتة، الدم يسيل وحسب.

ـ دعه يسيل ولا تأبه به.

لاذ الطبيب بالصمت. عيناه ويداه تعملان. تحركت المقصات. كان لها نحيب خافت.

ـ آه . . .

لم يعرف سبب انطلاق هذه الآهة الطويلة التي انبعثت منه فجأة .

التفت أحد الطبيبين الى الآخر :

ـ نكاد نصل الى القلب .

الصداع يمسك برأسه كالملقط ، والطرقات تتهاوى وتتوالى، وتعود جحافل الخيول لتملأ الفضاء. هولاكو يقترب . سنابك الخيول تثير النقع ، تلتمع النيران أمام عينيه ، القرى تحترق ، المدن تحترق ، المنازل تحترق ، بحيرة من النار يسبح فيها الناس والشوارع والمنازل ، ويجأر هولاكو :

ـ أحرقوا كل شيء ، اسبوا ماترونه ، أحرقوا الناس من الداخل .

يحترق الناس ، يقول الجند لهولاكو :

ـ هنا كتب وملفّات ومكتبات .

يهزّ رأسه ويصرخ :

ـ أمّا هذه فالقوها في الماء .

تضطرب القراطيس فوق صفحة الماء وتتقلب على وجوهها، يغوص قسم كبير منها في اللجّة ، ليفسح مجالاً لكتب أخرى ، ماء دجلة يتدافع بسرعة ويهدر في أذنيه . هو واقف وسط النهر

والمياه السوداء تحيط به ، تندفع نحوه ، يتلقاها بصدره ، تغمره ، كلّ ما حوله أسود ، المياه السوداء تنفذ الى أذنيه ، وتملأ فمه وتعشي ناظريه .

- هل قضيتم على العلم والعلماء ؟

- قضاء تاماً .

يبتسم الجنود ابتسامة الظفر ، ويهزجون :

- لقد أحرقنا كل شيء ، وقضينا على كل شيء ، وتمّ النصر لنا .

توقّفت طرقات المطارق في اذنيه فأرهف السمع ليلتقط ما يدور حوله ، قال الطبيب :

- ها قد وصلنا الى القلب .

وجسّ القلب برأس سبابته ، ثم استدار نحو زميله :

- انه كسائر قلوب أبناء هذه المدينة .

- ماذا تعني ؟

- أليافه متخشبة .

- ولكنه يضخّ الدم .

- عضلة ليس إلاّ . . .

- ماذا في نيتك أن تعمل . . ؟

- ليس في القلب عطب ، وابحث فيه علة .

- هو سليم اذاً ؟

ـ من الناحية الفيزيولوجية ؟ نعم ، ولكنه . . .

ـ ماذا ؟

تباطأت حركة اليدين الماهرتين ، وأخذت المقصات والمشارط طريقها إلى التعقيم . وساد السكون . انتقل الألم الى الطبيب :

ـ انه لا يحب ولا يكره ، لا يفرح ولا يحزن .

تنهّد الطبيب الآخر ، وداري دمعة .

تصدح الموسيقا وتقرع الطبول . تدخل الفرقة الموسيقية التابعة لجيش هولاكو بسرعة الى المستشفى . يسمع صوت أحذيتهم الثقيلة وهي تصعد السلالم ، ويدلف عدد منهم الى غرفة العمليات . يقول قائد الفرقة الموسيقية للطبيب :

ـ ماهذا ؟

لا يتاح له ان يلتقط ما يقوله الطبيب . يصرخ القائد :

ـ لماذا تضيعون وقتكم وجهدكم . هيّا بسرعة .

عينا الطبيب تسألان :

ـ ماذا نفعل ؟

ـ نحن بحاجة الى الأطراف العلوية والسفلية .

ـ عظـــامه ؟

ـ عظامه الفارغة .

ـ وما حاجتكم إليها ؟

ـ سنتخذ منها مزامير للفرقة الموسيقية التي ستعزف اليوم لحناً جنائزياً .

يستدير قبل أن يخرج نحو الطبيب ويصيح :

ـ نريدها سليمة غير مفتتة ، انتزعوها من مفاصلها .

نادى الطبيب زميله البدين الواقف أمام قدميه الممددتين .

وقال زائغ النظرة :

ـ يعاد تخديره .

الموسيقا تعزف . تتصاعد الألحان ، شجيّة هادئة حزينة . تشتدّ أصواتها وتقوى ،ويطغي صوت المزامير فيملأ ردهات المستشفى والحي والمدينة والعالم كله .

★ ★ ★

الصمت

حدث ذلك في الليل .

فبعد نهار طويل مضن من النزع ، كان آخر يوم من أسبوع شاق من الألم المبرّح ، أسلم الروح ، وبدت علب الأدوية الكثيرة ذات الالوان المختلفة والحجوم المتنوّعة المتناثرة هنا وهناك عديمة الجدوى ، تافهة . وبحركة يائسة ، فيها ألم ومرارة ، جمعها وألقى بها من النافذة . ثم جلس بالقرب من قدميه ، كانوا يبدّلون له ثيابه ويلبسونه ثوباً جديداً ، ثم وضعوا في قدميه حذاء ، وأكبّوا عليه يقبّلونه ، وبسطوا فوقه ملاءة بيضاء ، بعد أطبقوا جفنيه ، وهو مستسلم لهم يفعلون به ما يشاؤون . لم يندّ عن أفراد الأسرة أي صراخ . كانت خيوط من الدمع تسيل على خدودهم وحسب .

قبل ساعتين كان يجلس في هذا المكان نفسه ، لم يكن يعرف أن النهاية ستكون بمثل هذه السرعة . لقد أعلمه الطبيب أن ما من أمل ، ولكنه قدّر ان ذلك قد يدوم أياماً ، وقد ينفعه هذا الدواء او ذاك ، وفجأة . وكمثل لمح البصر ، همدت كل حركة . وخيّم صمت وهدوء كثيفان على من في البيت .

ثم كانت الحركة . كان لا بدّ منها ، الاتصال السريع بصانع التوابيت ، وبكاهن المنطقة ، وبالمطبعة لطبع الاعلانات السود ، وبمحل بيع أكاليل الأزهار... وما أسرع ما حضر الجميع . كانوا مقنّعين بقناع من الحزن المزيّف ، والعبوس المصطنع . . يرددون عبارات مألوفة محفوظة ، لا شك في انهم رددوها مئات المرات حتى بليت . كان يجلس صامتاً ، لم يتلفظ إلا ببضع كلمات لا مندوحة عنها ، كان يفكر فيه ، في ذلك الممدّد الهامد غير بعيد عنه في الغرفة المجاورة ، على بعد مترين منه . لماذا ناداه دون غيره من أفراد الأسرة قبل أن يغمض عينيه الاغماضة الأخيرة ؟ كان يريد ان ينهض ويتحرك . قال له :

ـ يا بنيّ أنزلني من السرير .

وامتثل لأمره . لم يكن يريد أن يردّ له طلباً . حمله بين ذراعيه وأنزله . مشى خطوة أو خطوتين فشعر براحة . قال وهو يتأوه :

ـ سأموت ما لم أتحرك !

فلم يستطع ان يقول له كلمة . اختنقت الكلمات في حنجرته . أضاف يقول له :

ـ أجلسني على المقعد .

ففعل . كان في الغرفة مقعد طويل ، فوضعه عليه وتدلّت

رجلاه الى أسفل . وضعوا له وسادة خلف رأسه بينما كانت احدى ذراعيه خلف ظهره . فأسند رأسه الى كتفه . ظلت كتفه تحمل حرارة رأسه زمناً طويلاً . ثم قال له :

ـ لقد استرحت الآن فأعدني الى فراشي .

حمله على ذراعيه كمن يحمل طفلاً عزيزاً عليه ومدّده باحتراس في فراشه ، لم يكن يدري أن ذراعيه قويّتان الى هذا الحد .

* * *

الذين جاؤوا بسرعة عادوا بسرعة ، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل ، الا أنه لم يكن يشعر بالنعاس ولم تكن له رغبة في النوم ، كأنما النوم طائر أفلت من صدره فهو لا يرغب في العودة .

قالت له زوجته وأمه :

ـ لابدّ من أن تذهب الى فراشك .

وأضافت زوجته :

ـ ان أمامك نهاراً شاقاً ، وينبغي أن تستريح الآن .

تمدّد في فراشه مكرهاً . الا أنه ظلّ يقظان . استمع الى الساعة المعلقة في الجدار تدق الثانية والثالثة والرابعة . ثم لم يعد يأتيه صوت دقات الساعة .

سمع نأمة خفيفة تناهت إليه من الغرفة المجاورة لغرفته ، فاستوى في فراشه ، في الظلام ، في ظلام الغرفة في الليل . رآه مقبلاً نحوه من الغرفة المجاورة ، وبحثت يده عن زر المصباح الكهربائي كيما يضيء الغرفة ، لكنه أشار إليه أن ما من حاجة فامتثل لأمره .

وببطء شديد ، كطفل يتعلّم المشي ، وصل إلى فراشه . رفع جذعه واستند الى دفة السرير . فرآه ، في العتمة ، يزيح اللحاف ، ويجلس مواربة على سريره . كانت قدماه تمسان الأرض بحذائه الجديد . هذه هي ثيابه الجديدة التي ألبسوه اياها منذساعات.

انتفض مدهوشاً ، وفرك عينيه بقسوة . أهو وهم ؟! لقد مات والده وانتهى الأمر فما الذي جاء به الى غرفته ، و كيف يستيقظ الموتى بعد ان ماتوا ؟؟

ظلّ مدهوشاً فزعاً هنيهات طوالاً . ثم اقترب منه وأمسك بكتفه وحنى رأسه عليه ، فرآه يبتسم ابتسامته الحانية التي يعرفها عنه حين يكون مسروراً مطمئناً . تلعثمت الكلمات طويلاً في فهمه قبل ان يتاح له ان يدفعها الى اذنه .

ـ لقد رحلت عنا ؟؟

ـ أجـــل .

وأضاف وعيناه مغرورقتان بالدموع :

ـ لقد آلمني موتك كثيراً ، وشعرت أن قلبي قـــد صار صغيراً جداً في صدري .

فهزّ رأسه ، قال :

ـ أعرف ذلك .

خيمّ الصمت مرة أخرى . كان صمتاً ثقيلاً كبيراً كالجبال . مدّ الوالد يده يلمس بها كتفه فذراعه فيده واستقرّت فيها ، فأحس برؤوس أنامله تحدّثه ، تهمس له .

تمالك نفسه ثم استجمع شجاعته وقال له :

ـ لقد كنت هناك اذاً ؟

فأجابه وهو يبتسم :

ـ أجـــل .

ـ وستعود من حيث أتيت ؟

لابدّ من ذلك !

قال له في ضراعة :

ـ اذن حدثني عمّا رأيت هناك .

في هذه المرة لم تبدر منه أية حركة او كلمة . وعاد الصمت يفصل بينهما . بعد فترة قصيرة ضغط على ذراعه وهزّ ساعده وقال له:

ـ هيّا اخبرني ، ماذا رأيت ، ومن رأيت ، وماذا سمعت حدثني ، صف لي كل شيء . . .

- . . .

الصمت . الصمت . لا شيء غير الصمت . صمت بارد نحيل . شاحب . شاهدة على قبر مهجور . كوكب بعيد ضارب في أقاصي السموات . أعماق يمّ لا ترى ولا تبلغ . مصباح بلا نور . الصمت .

لم يستسلم . شعر ان هذه هي الفرصة الوحيدة التي سنحت له ، منذ الأزل وهو ينتظرها . فأكب على يده يقبلها . قبل خديه . ارتمى في حضنه . غمر وجهه في قدميـــه وتضرع اليه . مزّقه الألم والبكاء ، فلم تبدر من ذاك الجالس على حافة سريره أية حركة ، لم يبدر منه اي صوت . لم يتلفظ بأية كلمة .

صرخ بأعلى صوته وهو يجهش بالبكاء :

- قل لي يا من كنت تحبني .

أتاه صوته هادئاً ، فخالجه شعور بالأمل :

- ماذا تريد ؟

- أخبرني عمّا رأيت ، ماذا هنالك ؟ قل لي .

- . . .

عـــاد الصمت فبسط جناحين واسعين كجناحي نسر ، الصخور لا تتكلّم . التفت اليه اخيراً فيما يشبه اليأس . وقال له :

- اذن لماذا ؟ لماذا ؟

- . . .

شعر أن كلّ جهد ضائع ، وأن مامن أمل . فقال في تمهّل :

ـ عفوك ان كنت أزعجتك . انني أحبك .

وأجهش بالبكاء . لم يبك حين كان جالساً في تلك الغرفة . تمالك نفسه . أما الآن فهو يعجب من غزارة هذه الدموع . دموع . دموع تبلّل وسادته ، قميصه ، تغمر الغرفة . دموع فجّرها الصمت والعجز والحيرة . الدموع تزداد . تملأ كل مكان . يسبح في بركة من الدمع . تتسع البركة . بحيرة الدمع واسعة صماء صامتة . تملأ كل ما حوله . لا يبقى الا رأسه غير مغمور بالماء . الماء المالح يبلغ عنقه . يرتفع الى ذقنه . يتسرب الى فمه . يكاد يخنقه .

يصيح يصيح :

ـ لا تبتعد . أريد أن أعرف .

وراح يصيح . . .

الذنب

قصة

لم يكن ذاك امراً مفاجئاً ولم يكن ابن يومه كذلك، فمنذ زمن بعيد لايستطيع تحديده ، وهـــذا الشعور يلتمس طريقه الى الظهور والافصاح ، ويتناقم في نفسه ببطء ، شيئاً بعد شيء ، ويوما بعد يوم ، فيحاول أن يبعده عنه وان يصرفه عن ذهنه صرفاً هادئاً مرة، عنيفاً مرة اخرى . وكان يطمئن في بعض الأحيان الى ركوبه وابتعاده مدة عن ساحة شعوره،ولكنه في كل مرة كان يفاجأ به يعود الى الظهور في وقت لايتوقعه ، بينا هو يعمل أو يسير أو يحاول أن ينـــام .

في ذاك الصباح كان هذا الشعور قد تصاعد في نفسه وتصاعد حتى بلغ حداً لم يعد باستطاعته ان يتحمله . كان أول ماخطر له ان يفعله أن يتوجه الى مديره المباشر ، وكان هذا التصرف ايسر ما يمكن ان يقوم به . واستقبله المدير بابتسامة عريضة فيهـــا ترحيب وعطف وخيل الى المدير اول الأمر ، أن هذا إنما جاءه مستفسراً عن شؤون العمل . ولكنه ادرك ، بعد دقائق ، أن زيارته لم تكن لها أية علاقة

بالعمل وسيره ، والموظفين ومايقومون بـه . عند ذاك دق المدير الجرس وطلب فنجانين من القهوة ، اذ أدرك ان الموظف هذا بحاجة إلى شيء ، فآثر رحـــابة الصدر دهدوء الأعصاب ، ولاسيما ان تلك كانت اول مرة يزوره فيها الموظف . فقد كان من عادته أن يرسل اليه الأوراق ومايتعلق بالعمل مـع الآذن ليوقعهـا ، ويتلقى منه التعليمات بالهـــاتف . وكثيراً ما كانا يجتمعان ، ولكن على نطاق واسع مع سائر الموظفين في جلسات تتعلق بالعمل وحسن سيره. وكثيراً ما كانا يلتقيان على سلم المبنى او في الممر ، فيتبادلان بعض الكلمات العابرة ليس غير .

بعد ان رشف فنجان القهوة ووضعه على الطاولة بجانبه امتدت بينهما فترة صمت ثقيلة من هذه الفترات التي لايعرف فيها الانسان ماذا ينبغي ان يقول او يفعل ، ومن أين يبدأ وكيف يبدأ . وشعر ان المدير بدأ يتحرك في كرسيه ، فاستجمع شجاعته ، وتوجه بأعماقه اليه محدقاً في وجهه وقال :

ــ سيدي المدير ، إن وضعي لسيء .

تنفس المدير الصعداء ، وأيقن آخر الأمر ان حدسه كان صحيحاً وأن ثمة مشكلة يعاني منها هذا الموظف الهادىء ، فعقد العزم على مساعدته ، مقدّراً ان هذا من واجبه . وشعر اليوم ، وربما لأول مرة، بأنه يسمو فوق مهمات العمل وشؤونه ليساعد انساناً جاء اليه .

ومرت فيه نفحة من كبرياء ، فمجيء الموظف إليه يعني انـه لم يجد أفضل منه ملجـأ ولاأحسن منه نصيراً ، فأقبل عليه بجماع نفسه وكل حواسه وفكره وسأله :

– ومم تشكو ؟ قـــل لي ، ولاشك في اني سأسعى إلى مساعدتك .

وبسرعة راح المدير يفترض بعض الافتراضـات . قال في نفسه لعله متضايق من بعض الموظفين ، او لعله بحاجة إلى اجازة ، أو ربما كان قد ملّ من العمل ، ومن اليسير أن ابحث له عن عمل أقل ارهاقاً . والتفت اليه يسأله :

– ما الذي يجعل وضعك سيئاً ؟

استجمع شجاعته كلها وقال له :

– اشعر انني مذنب ، وان ذنبي لكبير !

وبوغت المدير بهذا الجواب الذي لم يكن يتوقعه ،والحقيقة انه لم يفهمه، فمداركه محدودة بالعمل واطـار العمل وحسن سيره ، وهو يعرف ان هذا الموظف يقوم بعمله كأحسن مايقوم به موظف. فقال له :

– اما بالنسبة الينا فأنت لست بمذنب ولاغبار عليك .

ثم اضـــاف :

– واذا كنت تريد انتنتقل إلى عمل آخر فباستطاعتي أن

ايسّر لك ذلك ، وان كنت تشكو من بعض الموظفين فـأنا قادر على نقلهم او معاقبتهم .

ولم ينتظر أن يتم المدير كلامه فقاطعه وقال :

ـ لا ، لا ، لادخل لهذا كله في الموضوع . قلت لك انني اشعر بأنني مذنب واريد ان احال إلى المحكمة !

بهت المدير ودفعه عجزه عن الفهم إلى ان يقول :

ـ لسنا نراك كذلك ، ولو انك كنت مذنباً لأحلناك الى التفتيش او الى مجـــلس التأديب ، فنحن نراقب الموظفين مراقبة دقيقة ونحصي حركاتهم وسكناتهم وهذا كنه عملنا ، ولما انتظرنا ان تعلمنا انت بذلك.ماعليك الا ان تعود الى عملك بما عرف عنك من همة ونشاط ، فالتقارير التي لدينا لاتشير إلى انك ارتكبت اي ذنب تحاسب عليه ، بل على العكس ، فكل مابين ايدينا يشير الى انك موظف تتمتع بضمير مسلكي ممتاز.

عند ذاك ادرك ان كل حوار بينه وبين مديره ضرب من العبث ، فكل منهما في واد ، ولاسبيل الى التقائهـــما . فقام فصافح المدير الذي ظهر الآن وكأنه يستعجل انهاء هذه الزيارة غير المجدية ، وخرج الموظف ، وسرعـان ما استغرق المدير في دوامة الهواتف والأوراق .

ليس يدري من اشـار عليه ان يقصد طبيبـاً نفسياً ،فذهب بعد ظهر احـــد الأيام إلى عيادة طبيب مشهور . وظل يتردد على

عيادته اسابيع عدة اجرى له خلالها كل مايعرفه من شؤون البحث والكشف النفسي ، واخضعه لسلسلة من الروائز والتجـــارب النفسية ، وبحث في العقد التي يحتمل انه مصاب بها ، كذلك حاول دراسة الكبت الجنسي عنده ، واختبره بمئات الأسئلة التي تعلمها في الجامعة ولكنه نفض يديه منه آخر الأمر وقال له :

ـ لاشك عندي بعد هذه الفحوص الطويلة التي قمت بها انك إنسان سوي . اما شعورك بالذنب فلست ادري له سبباً . واغرب مالاحظته عليك ، انك ، خلافاً لكل الناس ، لاتريد ان تخفي هـذا الذنب بل تريد ان تحاسب وتحاكم عليه . ولولا هـذه الاختبارات الطويلة لاعتقدت انك مصاب بمرض تعذيب الذات. ولكنني اؤكد لك انك سوي ، وليس في عقلك اي اضطراب او خلل . ولم اعالج مريضاً قط يمتاز بمثل هذه الصحة النفسية المتكاملة فلا عقد ولا كبت ولاشعور بالنقص او الحرمان لديك . ويخيل الي ان عليك ان تقوم بنزهات متصلة لتنسى هذا الشعور وانا كفيل بذلك .

وادرك الموظف للمرة الثانية ان هذا الطبيب لايكاد يختلف كثيراً عن المدير وشعر انه يضيع وقته سدى مع هؤلاء الناس .

★ ★ ★

كانت جرأة كبيرة منه ان يتوجه بعدذلك إلى قصر العدل.

فقد قدّر أن خلاصه إنما يكمن هناك . ألا يساق المجرمون ومرتكبو الآثام والجنح والذنوب الى قصر العدل ؟ وهكذا مضى في صبيحة أحد الأيام الى قصر العدل حاملاً معه هويته ، وأقام ينتظر . وإذا بالمنادي ينادي على المتهمين والمحامين والشهود فيدخلون قاعة المحكمة ثم يخرجون ليدخل فوج آخر . واستمرت الحال على هذا النحو حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، فارفضت الجلسة وأوشك القاضي ان يقوم لينصرف . حينذاك ولج الرجل الى القاعة وتقدم نحو القاضي وقال له :

ـ سيدي القاضي ، اريد ان تحاكمني !

فابتسم القاضي ابتسامة فيها كثير من الوقار والرزانة ، وقال له :

ـ ومن أقام عليك الدعوى ؟

دهش الرجل وقال له :

ـ لم يقم أحد عليّ أية دعوى ، ولكنني اشعر أنني مذنب ولا بد من محاكمتي .

فهزّ القاضي رأسه وقال :

ـ هذا مخالف للقوانين .

وأضاف وهو يجمع أوراقه ويضعها في حقيبته الجلدية الكبيرة :

ـ اسمع يا هذا ، لابد لنا لكي نحاكم الانسان من ان يحرك عليه أحد الدعوى ، دائن أو غريم أو مدّع ، او النيابة العامة او مصلحة من المصالح او الشرطة ... وأما ان يتقدم إنسان الينا طالباً ان نحاكمه فهذا ليس من اختصاصنا ، وليس في قوانيننا .

ثم قال له وهو يزرر حقيبته :

ـ لا تضيع وقتك وانصرف الى عملك ، وحين ستحال الينا فتى أننا سننظر في قضيتك بعدالة كشأننا مع سواك من المواطنين .

يبدو أن هذا الكلام لم يعجب الرجل ولم يقنعه ، فخرج مغضباً ناقماً على هذه القوانين ، وراح في الأيام التالية ينتقل من محكمة الى اخرى . وكثيراً ما أشفق عليه الحكام والقضاة ولم يطردوه فوراً ، فكان بعضهم يسأله : هل سرقت مال أحد ، او هل قتلت رجلاً او دهست طفلا او خالفت الأنظمة ، او هل تريد ان تطلق زوجتك ؟ وكان يجيبهم في كل حال بأنه لم يفعل شيئاً من ذلك البتة . وانتقل على هذا النحو من محكمة البداية الى محكمة الجزاء الى المحاكم الجنائية الى المحاكم الشرعية ، ثم قصد محاكم الاستئناف كلها ولكنه لم يظفر بطائل . وتلاغط القضاة في مجالسهم الخاصة حول هذه الظاهرة الفريدة التي لم يكن لهم بها عهد .

وتطوّع أحد القضاة ، وكان قريباً من وزير العدل ان يتصل به ليدرس هذه الظاهرة العجيبة بعد ان تأكد من ان الرجل سوي

العقل غير مختل الشعور . وفعلاً فقد أبدى الوزير اهتماماً بالغاً بهذا الموضوع الخطير ، ولكنه ادرك ان كل المحاكم في قصر العدل لا تستطيع ان تنظر في أمر هذا الرجل . لذلك ، وبعد مشاورات طويلة ، قرر تشكيل محكمة خاصة استثنائية مؤلفة من ثلاثة قضاة عرفوا كلهم بالعلم الواسع والخبرة الطويلة والأخلاق الرفيعة والنزاهة في العدالة .

وسرّ الرجل سروراً بالغاً حين أنبؤوه أن محكمة خاصة قد شكلت لمحاكمته وراح ينتظر موعد المحاكمة على أحر من الجمر .

في اليوم المحدد للمحاكمة نودي عليه فهب سريعاً وهو موقن أن الفرج قد جاء .

قال له رئيس القضاة بعد ان القى عليه الأسئلة المعهودة عن اسمه وعمره وأبيه وأمه وعمله :

ـ والآن ، هل تشعر حقاً أنك مذنب ؟

أجاب الرجل بثبات :

ـ نعم .

قال له رئيس القضاة :

ـ هل لك أن تخبر أعضاء المحكمة الموقرة عن طبيعة الذنب الذي ارتكبته ؟

قال الرجل :

ـ الحق ياسيدي أنني لم أرتكب إثماً ولكنني مع ذلك أشعر أنني مذنب .

قال له أحد القضاة :

ـ وما الذنب الذي تشعر به ؟

تردد الرجل هنيهة ثم قال بصوت أجش كأنه منبعث من أغوار الأبدية ، ولم يبد صوته صوت إنسان بل صوت جوقة من الناس يقول :

ـ أشعر يا سيدي القاضي أنني حفيد مروان بن محمد .

فهمهم رئيس القضاة :

ـ على يد هذا سقطت الدولة الأموية .

ـ وأنني حفيد المستعصم بالله .

فهز القاضي الآخر رأسه في حسرة :

ـ وبهذا صفّيت الخلافة العباسية .

ـ وأنني حفيد محمد أبي عبدالله .

وتبادل القضاة النظرات :

ـ آخر الحكام في الأندلس .

ـ .. وان هذا الشعور يا حضرات القضاة هو الذي يقض مضجعي ويكاد يأخذ بخناقي ، وان هذا الذنب يمثل في أعماق وجداني.

ليل نهار ، ويؤلمني حتى الموت شعوري به . وأنا على استعداد لأن أتحمل كل عقوبة ، حتى عقوبة الإعدام لأكفر عن هذا الذنب ...

نظر القضاة الثلاثة بعضهم الى بعض ، ثم وجموا لحظات ، بدت لهم كأنها دهر طويل. ثم أشاروا اليه ان يبتعد الى اخر القاعة، وأمروا من في القاعة أن يخرجوا منها . ودارت بينهم مناقشة طويلة حادة لم يتبيّن الرجل الواقف في اخر القاعة الكبيرة ما يقولون لبعد المسافة وخفوت أصواتهم ، ولكنه قدّر أنهم كانوا يتناقشون حول مدى اعتبار هذا الذنب ذنباً يستوجب العقاب .

بعد ساعات ثلاث من المناقشة ، احتد فيها كل منهم بدوره استدعاه رئيس القضاة بحركة من يده وقال له :

ـ لقد استوعبنا موضوع ذنبك وفهمناه على غرابته ، وسنصدر حكمنا بعد اسبوع في مثل هذه القاعة ذاتها .

سرّي هذا القول عن الرجل ، ومضى الى عمله يترقب الساعة التي وعد بها ويحثّ الزمن على الاسراع .

* * *

أقبل الرجل في الموعد المضروب فوجد قاعة المحكمة غاصة بالقضاة والمحامين ، ثم جاءت هيئة المحكمة وأعلن افتتاح الجلسة ، ونودي عليه فلبّى النداء بسرعة كبيرة .

وقف رئيس القضـاة فوقف كل من في القاعة وقرأ الحكم الذي كان مكتوباً على ورقة طويلة ، فبدأ بالحيثيات المعروفة ومر عليها بسرعة وحين انتهى الى الحكم تمهّل وهو يقرأ :

« . . . ولقد نظرت المحكمة الخاصة المشكّلة بناء على القرار الوزاري في أمر المذنب المشار اليه . وبعد ان استمعت الى افادته ودرست قضيته في عناية ودقة بالغتين رأت أن ذنبه فادح خطير ، ولكن لما كان هذا الذنب ذا صفة عمومية فقد قررت بالاجماع منع محاكمته قراراً غير قابل للاستئناف او النقض وبلغته اياه وجاهياً » .

وارفضت الجلسة وعاد كل من حيث جاء .

* * *

الصعود

قصة

حين رأى كوّة الضوء أمامه شعر بفرح طفولي عظيم ،وود لو يمسك بهذا الضوء الجميل البراق الذي أخذ بلبّه وجذبه اليه في قوّة بالغة . كانت كوّة ملتمعة وهّاجة لا يدري كيف انتصبت أمامه ولا من أين جاءت . وكان طوال حياته يحب الضوء الباهر اللامع ويود لو يستحم فيه ، لو تتشربه شرايينه لو ينام على إيقاع ذراته . ومع شعوره التام بأن الامساك به ضرب من المستحيل فقد مدّ يده نحوه ، مدّ يديه كلتيها ، وبهت إذ وجده صلباً متيناً ، أدرك ذلك حين اصطدمت أطراف أصابعه به ، فسحبها بحركة لا شعورية . وأعاد المحاولة بشيء من التمهّل والخشية والحذر . ولكن دهشته كانت أكبر حين عاد فوجد الكوة صلبة . فما كان منه إلا أن حاول دفعها برفق . وسرعان ما انقسمت الكوة الى ضلفتين انبسطت خلفها باحة كبيرة معشبة ملأى بالأزهار . فخطا خطوتين ثم وقف يتبين معالم المكان فوجد أشجاراً وارفة

الظل يداعبها نسيم ناعم ، وفي صدر الباحة لاحت له فسقية تسكب مياهاً رقراقة ، ثم تبدى له طوار عريض يحيط بهذه الحديقة من جهاتها الأربع ، طوار من المرمر الأبيض الناصع . فوقف هنيهة مأخوذاً بسحر المكان يملأ عينيه منه ويشم أريجاً عطراً عبقاً لا عهد له بمثله . في تلك اللحظة ، تناهت اليه أصوات ، أصوات غريبة عذبة ، موسيقا عجيبة هي مزيج من حفيف الأوراق وشدو البلابل وسقسقة المياه مختلطة بصوت أرغن يأتي من مكان بعيد بعيد ، فيتشكل من ذلك كله نغم عذب يعجز البشر عن ابداع مثله .

سار على الطوار بحذر ، وكلما خطا بضع خطوات امتدّ المكان أمام ناظريه امتداداً شاسعاً . ولم يلبث أن أدرك أن الطوار يتفرّع الى ممرات عديدة تكاد تشكل متاهة . وحيثما التفت وقع بصره على مناظر مشابهة لمنظر الباحة بخضرتها وأشجارها وأريجها وانغامها .

وليس يدري كيف لم ير ، للوهلة الاولى ، على شدة امعانه وتدقيقه في جوانب المكان ، تلك الجدران اللامعة التي ينسكب عليها الضياء . كانت جدراناً صقيلة وقدّر أنها حديثة البناء . وحين اقترب منها تأكد من صحة ظنه . فقد كان ثمة بعض آثار البناء ما تزال قائمة ، بعض الأدوات ، وبعض الكوم الصغيرة من التراب والاسمنت ، وحجارة صغيرة متناثرة هنا وهناك. إلا أنه لم يجد عمالاً يعملون او اناساً يعمرون هذا المكان .

في تلك اللحظة عينها ظهرت له الفتاة وهي تبتسم . ويبدو انها كانت تراقبه منذ أمد غير قصير. حيّره ظهور هذه الفتاة المفاجىء. من اين جاءت وماذا تريد و كيف كانت في هذا المكان . لبثت الفتاة صامتة ، كانت عيناها تتكلمان وحسب ، وحدّق في عينيها . كان فيهما بريق غريب وسحر لا يدري كنهه .

خطا خطوة الى الوراء ، فبدت له الفتاة كتمثال ممشوق القوام . كان شعرها اسود طويلاً كقطعة من الليـــل ، ووجهها ابيض ، أما عيناها ... فكان كل جمالها مكثفاً فيهما . وجال ببصره في قوامها فرأى التناسق والتناغم بين اعضاء جسمها كله . واعجبه هذا الثوب الأسود الذي ترتديه فوق بنطال يدق عند القدمين كأنه بنطال فارسة . وفوق ذلك كله كانت ترتدي برنساً يغطي ثلاثة ارباع جسمها . وراح ينقّب في اغوار هذا الشكل الجميل الذي بدا له على حين غرة منهلاً في جماله ، فريداً في بهائه وروعته حتى لقـــد احس بقشعريرة من فرط تأثره . عند ذاك فتحت الفتـاة فمها للمرة الأولى ، وقالت له :

ـ اتبعني !

لم يخطر له أن يرفض أمرها، ولم يدر بباله أن يسألها إلى أين، كانت الاشارة البسيطة التي بدرت من يدها البضة البيضاء كفيلة أن تقوده الى حيث تريد .

ومضى في أثرها .

دخلت من أحد الأبواب فاذا هو في قاعة كبيرة خالية . ولم يتح له أن يتبيّن المكان ، فقد رأى الفتاة في آخر القاعة تصعد درجاً مبنياً في واجهتها ورفع بصره فرأى باباً في أعلى السقف . تبع الفتاة على عجل وهي تصعد الدرج وتفتح الباب ، ودخلا منه الى قاعة أخرى . كانت الغرف التي سارا فيها كلّها مبنية على هـذا الطراز الغريب .

ليس يدري كم غرفة اجتاز . وحانت منه التفاتة الى نافذة قريبة منه وهو يغذ السير ليلحق بالفتاة ، فنظر منها الى أسفل فرأى الباحة الجميلة التي دخل منها الى هذا المكان وقد أصبحت بعيدة عنه . ولكنه رآها هذه المرة من جهة أخرى . فأيقن أن البناء الذي يجتازان غرفه يحيط بهذه الباحة الواسعة على شكل دائري . وما أن تمم في دخيلة نفسه « حصن » حتى التفتت إليه الفتاة دون أن تتوقف عن السير وقالت وفي صوتها فحيح غريب :

- نعم نحن في حصن .

وتلوّت أمامه كأنها أفعى ، فأسرع في مشيته ليلحق بها كما ينجذب عصفور صغير الى شدق أفعى كبيرة الحجم .

اجتازا كل الغرف الأولى الخالية ، فالتفتت إليه على عجل تقول :

ـ سيأتي من يعمر كل هذه الغرف ، والآن اتبعني .

وتبعها صامتاً معقول اللسان . تناهت اليه قبل أن يلج غرفة جديدة أصوات خافتة . فتحت الفتاة الباب ببطء ، واجتازت الناس بحذر ، فحذا حذوها . كانت مجموعة من المصلين ينشدون على نحو جماعي ترتيلة دينية عذبة على ايقاع أرغن غير مرئي . وكان النـــاس مستغرقين في الانشاد ، فلم يلتفت اليه أحد منهم . وأفضت به الى غرفة أخرى . لقد بدأ يشعر بالدوار والتعب ، فتمنى لو يتوقف لحظة يسترد فيها أنفاسه . ولكن الفتاة كانت قد سبقته فاجتازت غرفتين أو ثلاث غرف . نظر من احدى النوافذ فوجد أن الباحة الجميلة قد ابتعدت فكأنها قعر بئر عميقة . فحث خطاه ، واسترق في اسراعه ذاك نظرة عجلى الى أرداف الفتاة . وكأنما شعرت الفتاة بـذلك فتوقفت هنيهة واستدارت نحوه ثم ابتسمت في اغراء . أهي تشجعه أم تزجره ، ولم يدر حقيقة ما ترمي إليه ابتسامتها .

في الغرفة التاليـة وجد لصاً يسرق خزينة مملوءة بالجواهر والحلي . فأشارت إليه أن يسرع وأن لا حاجة الى التوقف معه ، وودّ الرجل لو يصرخ أو ينبهها الى هذا السارق الذي يملأ جيوبه من الخزينة بعد أن حطم قفلها في وضح النهار . ولكنها بدت لا تبـالي بذلك . وكان كلما نظر من احدى النوافذ بدا له جانب من جوانب الباحة الجميلة وهي تزداد بعداً عن ناظريه . واقشعر بدنه وهو يرى

في احدى الغرف شيخاً طاعناً في السن يضاجع فتاة صغيرة. وكاد يتعثر بعكازه المرميـــة على الأرض بجانبه . ورأت الدهشة والشحوب مرتسمين على وجهه فابتسمت ابتسامتها المغرية وهي تقول له :

ـ هذه مملكتي !

في ثانية واحدة ، في أقل من ثانية ، خطر له أن يعود من حيث جاء ، أن يهرب . واذ ذاك اصطدم بالفتاة التي كانت قـــد توقفت ، فخلعت معطفها فبانت يداها البضتان ، أمسكت به من يـده فسرى في جسده شيء دافق من حرارتها وفتوّتها ، وهمست في اذنـــه :

ـ ألا تريد أن تتبعني ؟ ساجعلك سيد هذا العالم !

قال لها في شيء من الخوف والمرارة :

ـ بدأت أشعر بالاعياء .

ولم يشأ أن يضيف كلمة « الاشمئزاز » .

فابتسمت له وقالت تشجعه :

ـ لا عليك ، فقد اقتربنا .

سألها بلهفة :

ـ ومم اقتربنا ؟

تلوّت أمامه كالأفعى ، وقالت له بصوت كالفحيح :

ـ الى غرفتك ، حيث ستصبح سيد مملكتي هذه !

وفي الواقـع فقد كانا قد بلغا المشارف العليا في هذا البنـاء
أو الحصن أو القلعة . وحين وقفا في الباب المشابه للأبواب العـديدة
الكثيرة التي اجتازاها شعر أن البناء ينتهي هناك ، وان هذا الباب
لا يفضي الى شيء .

استند إلى حائط الباب يستريـح . وليس يدري كم امتدت
هذه الوقفة ، ففي يقينه أنها لم تتجاوز دقائق معـدودات ، والتفت
يبحث عن الفتاة التي كانت واقفة إلى جانبه . ولكنه ، وفي دهشة
كبرى ، لم يجـــدها . فالتفت الى الخلف يبحث عن الصوت فاذا
الفتاة على بعد عشرين خطوة منه ، في غرفة عالية منفردة تحيط بهـا
أشجار تحتضن نور الفستق وتشدو فوقها البلابل ،وسمع صوتهايناديه :

ـ هذه هي غرفتك ، هذه هي غرفتنا .

قال لهـــا :

ـ ولكن كيف السبيل الى الوصول إليها وليس من بنـاء
يصل بين هذه الغرفة وتلك .

فضحكت ضحكة تناثر منها شرر احمر بهر بصره . ورآها
تنزع ثوبها الأسود عن جسمها ، والتمـع جسدها المرمري في ضيـاء
الشمس الغاربة . قالت له :

ـ انظر !

وفي الواقـع فقد كان هناك سلم خشبي موضوع على نحو أفقي

يربط بين هذه الغرفة التي كان واقفاً فيها ، وبين الغرفة الأخرى التي . انتصبت فيها الفتاة فاردة ساقيها واضعة يديها على خصرها النحيل . وقدّر الرجل ان الفتاة قد عبرت إلى الغرفة الأخرى بعد ان اجتازت هذا السلم الخشبي .

قالت له :

ـ هيّا ، تشجّع . ان البناء لم يستكمل بعد ، وعليك ان تسير ببطء وحذر على هذا السلم المربوط بعناية من كلا طرفيه بالحبال .

نظر الى السلم فوجده أقصر من المسافة ولكن حبالاً دقيقة تربط كلا طرفيه بالغرفتين. وكان في الوقت نفسه ضيقاً جداً لا يعدو عرضه الشبرين .

تردد لحظات،فأهاب به صوت الفتاة وكأنه لسع السياط :

ـ لا تخف ، فما أكثر ما اجتزت هذا السلم ، وها أنا الآن قد اجتزته .

حين وضع احدى رجليه على السلم شعر أن الخشب تحتها متين صلب ، وان ربطه قوي محكم . فتشجّع ونقل الرجل الثانية ، وراح ينقّل خطاه ببطء وحذر شديدين . وكاد يصاب بالدوار ، وهو ينظر الى الأسفل : فراغ هائل ، وأيقن انه كان على ارتفاع شاهق جداً .

لما بلغ منتصف السلم بدأ يشعر بشيء من الاطمئنان . وعند

ذاك ، وعند ذاك بالتدقيق، مدت الفتاة يدها اليمنى الى جيب صغير لا يكاد يرى في بنطالها ، واستخرجت منه شفرة صغيرة، التمع نصلها التماعاً شديداً، وانحنت على الحبل الذي أمامها؛ نظر الرجل الى الفتاة فرأى صدرها المرمري ورأى يدها تعمل بخفة ومهارة . وان هي الا ثانية ، وكان قد اوشك ان يصل ، حتى انقطع الحبل وعاد السلم الى الجهة الأخرى ، وهوى الرجل من شاهق ، وظلّ يهوي ويهوي الى ان ارتطم بالحضيض مهشماً لم تند عنه الا صرخة واحدة .

وكانت الفتـاة واقفة فوق ، في الأعلى ، في العلو الشاهق ، واضعة يديهـا البيضاوين البضتين على خصرهـا النحيـل الدقيق تقهقه قهقهة شيطانية !

★ ★ ★

الصواب والخطأ

كان ابراهيم مستلقياً في فراشه في انتظار ان ينام .

ناداه صوت واضح حاد لم يعرف مصـــدره اول الأمر ، مهيباً به ان يتقدّم ، فالتفت حوله يستطلع هـذا الصوت الآمر .

ولم تمض ثوان قليلة حتى برز امامه شاب صغير السن فقال له :

ـ إن سيادة المدير العام يدعوك ، فاترك عملك وهلمّ اليه على عجل .

فكّر ابراهيم في نفسه طويلاً ، متسائلاً عن غاية المدير في من هذه الدعوى . ولم يلبث ان شعر بالارتباك والحرج ، وسرعان ما خامره شيء من الخوف تحوّل الى فزع ، وخطر له ان يعتذر او يرجىء هذه المقابلة فهتف بالشاب يقول له :

ـ الا يمكن تأجيل هذا اللقاء ؟

واضاف في حيرة :

ان لدي عملا كثيراً .

ونظر امامه فلم يجد على الطاولة اي عمل او ورقة ، الا انه الشاب اجابه بهدوء وثبات :

ـ الموضوع فيما يبدو ، يتطلب منك الاسراع ، واظن انه فيه خيراً لك .

فتمتم ابراهيم في نفسه : « ومن اين سيأتي الخير ؟ اخشى ان يكون امري قد افتضح ، فقد بدا الموظفون يتحدثون خفيـــة ، والارجح ان البلدة كلها قد تناقلت اخباري » .

قام وهو يتمنى ان تمر المقابلة على خير . اقتاده الشاب في درب ضيقة مظلمة ، فحار في هـذا المكان الذي بدا له وكأنه يراه للمرة الاولى في حياته . هل تغير المكان الذي يعمل فيه ؟ واخذت الدرب تضيق وتضيق حتى اضطر الشاب وابراهيم من ورائه ، ان يسيرا مواربة كيا يصـــلا الى باب الغرفة الوحيدة . كان باباً حديدياً محفوراً في صخرة كبيرة . وزادت العتمة شيئاً فشيئاً . فتلمس الجدار بيـــده وهو غارق في تساؤلاته ، فلماذا نقلوا غرفة المدير العام الى هذا المكان الشبيه بالقبو ؟ ولماذا لا يضاء الممر ببعض الانوار التي تملأ غرفته وغرف سائر الموظفين ؟ واين الاذن وغرفة المعاون وغرفة السكرتير ؟ الحق ان في ذلك كله ما يدهش . ولم يملك تفسيراً لكل ما يرى امامه . فقال يخاطب الشاب :

ـ الى اين تقودني ؟ العلهم بنوا سجناً في المديرية ؟.

وارتجف حين مرت كلمة السجن على شفتيه .

اجابه الشاب باقتضاب :

ـ عجيب امرك اليوم ، كأنك تزور غرفة المدير للمرة الأولى في حياتك او كأنك حديث العهد بالمديرية .

ثم اضاف بعد لحظة :

ـ لا اكاد اصدق اذنيّ !

افسح الشاب مكاناً لابراهيم ليمر من امامه ، فنقر هـذا الباب نقراً خفيفاً . اخذ الشاب يضحك بصوت عال، وهو ينظر الى ابراهيم نظرة غريبة لا تخلو من سخرية :

ـ العلك نسيت عاهة المدير !

لم يفهم ابراهيم شيئاً . عند ذاك ضغط الشاب على زر كهربائي ابيض كبير ، وسمع صوت يقول :

ـ تفضل .

وبأسرع من لمح البصر ، صرّ الباب ، ورأى ابراهيم ان الباب كان باباً خشبياً مصنوعاً من خشب السنديان ، مطلياً باللون البني . ثم اتسّع الممر وانبسطت غرفة كبيرة فيها مكيف للهواء ، تضيئها ثريات من البرونز . كانت موظفة ــ لم يسبق له ان رآها ــ منحنية على مكتب المدير يكاد رأسها يلامس رأسه ، باسطة امامه

شيئاً يشبه الأوراق. فأشار المدير العام اليها ان تبتعد ، كما اشار بيده الى الشاب ان يعود من حيث جاء ، وأمره ان يغلق الباب ويدعهما وحدهما ، فامتثلت الفتاة والشاب لأمر المدير العام .

رحبّ المدير به ترحيباً حاراً على غير ما توقعّ . وقبل ان يفتح ابراهيم فمه بادره المدير يقول له :

ـ اصغ اليّ ، ولا تحاول ان تكثر من الكلام فان سمعي ، كما تعلم ، قد ضعف في هذه الأيام الأخيرة .

ثم أشار إليه ان يجلس على مقعد وثير. فجلس وشعر بكثير من الراحة في جلسته تلك .

شرع المدير يتحدث موجهاً كلامه الى ابراهيم بينما كان هذا يصغي الى أقواله ويحاول جاهداً ان يستوعبها .

قال له المدير :

ـ لابدّ انك تقدّر سبب دعوتي اياك ، فأنت موظف قديم في هذه المديرية .

قال ابراهيم ـ والارجح ان المدير لم يسمع قوله :

ـ نعم ، نعم موظف منذ اكثر من خمسة عشر عاماً .

واحس بأنه يرتجف ، ويميل به مقعده . فهبّ من مكانه فوجد نفسه يلاصق المدير كتفاً الى كتف في مقدمة باخرة تقطع عرض البحر في سرعة غريبة . كانت السفينة خالية لا انسان فيها .

لقد دنا وقت الحساب حتماً ، وسيكون حسابك يا ابراهيم عسيراً ، كيف سوّلت لك نفسك ان تفعل كل ما فعلت ؟

مال المدير الى ابراهيم – أكان مدفوعاً بالحنو والحنان ، ام لأن السفينة اهتزّت – وقال له :

– لقد راقبناك ، وراقبنا عملك طويلاً .

يتحدث المدير ببطء وتريث ، ويقطع كلماته بهدوء واناة ، فتبدو كأنها خارجة من اعماق الأبدية .

اذن من اجل هذا السبب دعاك يا ابراهيم . كيف لم تفكر في هذا اليوم ؟ ولم تحسب له حساباً ؟ لسوف ينبش ماضيك كله كما تنبش القبور ، وسيعثر على عفن وصدأ وديدان وستفوح الروائح النتنة بسرعة .

– والحق انك موظف مثالي .

بدأ بالسخرية منك لاريب ، لم يفجر القنبلة فوراً بل ها هو يمهّد لها تمهيداً خبيثاً ، عليك ان تستعد لتحمل الصدمة وان تجد لنفسك مخرجاً .

قال ابراهيم بصوت عال كأنه الصراخ :

– استغفر الله ، استغفر الله !

إلا ان الموج المتلاطم حال دون وصول الكلمات الى أذني المدير الهرم ، فتابع هذا كلامه :

ـ اما بالنسبة الى الدوام والعمل . .

اغلق اذنيك يا ابراهيم اذا استطعت ، هاهو ذا يبدأ معك من البداية . هل يريد ان يقول انك تتأخر يومياً ساعة أو اكثر عن موعد الدوام ، ثم تنصرف في الساعة الواحدة ؟؟ قل له بسرعة ان هذا هو دأب كل الموظفين .

قال ابراهيم بصوت عال وهو يحاول ان يسمع المدير صوته :

ـ سيدي قلما تغيبت أو تأخرت عن العمل الا في احوال نادرة طــــارئة .

في هذه المرة سمع المدير العام ماقاله ابراهيم وفهمه واستوعبه فقال له :

ـ اعرف ذلك ، وهذا ماأردت ان اقوله ، فنحن راضون عن عملك كل الرضى .

تنحنح المدير قليلاً فوجب قلب ابراهيم في صدره . ان المدير ليتبع معك خطة بارعة ، فهو يستدرجك على مهل ، وقد نجح في الجولة الاولى وهو الآن يستجمع مهارته للجولة الثانية .

ـ ثم انك ، وهذا هو المهم عندنا ، موظف شريف نظيف اليد .

لقد كشف اوراقه ، هذه هي النقطة الــــتي يريد ان ينتهي اليها : الاختلاس والسرقات . وعض ابراهيم على شفتيه ، وشعر في اعماقه بندم حقيقي . يبدو انك مهدد ، محاصر . ولكن اياك ان

تستسلم بسرعة . ان هـذه البناية التي شيدتها هي من اموال زوجتك التي ورثت ثروة طائلة عن اهلها. ينبغي ان تؤمن بذلك، اطوماضيك وماضي زوجتك المدقع، وانس عيشة الكفاف التي بدأت بها حياتك.

يتابع المدير كلامه فأصغ اليه وكن حـذراً :

ـ فالاستقامة والأمانة أهم صفتين يتمتع بها الموظف ابدا .

إلى اين يريد ان يصل بك بكل هذا الخبث وهذه المهارة؟ لقد اهتصر فؤادك واضلعك فماذا انت فاعل ؟

ـ ليس يعنينـا ان تكون غنيـاً او فقـيراً ، او تنفق اموالك كلها او تدخرها كلها فهذا شأنك. انما يهمنا هو الاخلاص في العمل والتفاني فيه .

هز ابراهيم رأسه وقد اخذه دوار لاشك انـــه متأت عن البحر ، قال :

ـ هـــذا صحيح .

سارع المدير آنذاك يقول :

ـ ولهذا السبب ، وللاسباب السابقة كلها . .

لقد دنت ياابراهيم اللحظة الحـاسمة التي لم تحسب لها حساباً طوال عمرك ، وعليك الآن ان تتحمـل العواقب ، تذرع بالصبر او الق بنفسك في اليم ، فلن تجد لك مفراً . .

وفعـلاً فقد تمـــنى ابراهيم في دخيلة نفسه لو يبتلعه البحر

انذاك. فألقى نظرة شاردة على البحر الذي كانت السفينة تمخر عبابه. لم يعد هناك بحر ولا سفينة . كان هو والمدير يجلسان على اريكة في حديقة جميلة ، في فيء شجرة وارفة الظل ذات اغصان عديدة ، وكان نسيم عذب يداعب وجهيهما وشعرهما .

ـ قررت انا ومجلس الإدارة ان نقدّر جهودك .

عند ذلك صرخ ابراهيم صراخاً عالياً كأنه النباح :

ـ لاحاجة الى ذلك ياسيدي ، لاحاجة الى ذلك .

ابتسم المدير وعلت وجهه علائم الرضى فقال :

ـ اعرف فيك التواضع ، ولكن تقدير جهودك واجب يمليه علينا ضميرنا .

ولم يدر ابراهيم بماذا يجيب .

ـ ستصبح بعد اليوم مساعد المدير العام ، وهكذا تستفيد المؤسسة من جهودك ، وسيتضاعف مرتبك لقاء تحملك هذه المسؤولية ، وستمنح وساماً كبيراً من ذهب ، وسأقلدك اياه فوراً .

نظر الموظفون في كثير من الاعجاب الى زميلهم ابراهيم الواقف امامهم على المنصة . كانت يد المدير العام تطوّق عنقه بوسام مذّهب . وحين مدّ اليه يده مصافحاً دوت القاعة بالتصفيق وهتف الناس طويلاً ، وصدحت الآلات الموسيقية ـ ولاسيما الابواق النحاسية ـ بلحن مفرح بهيج .

★ ★ ★

استيقظ ابراهيم على صوت المنبه تطلقه الساعة الموضوعة بجانب فراشه . لقد ملأها مساء أمس لينهض اليوم في الساعة السادسة استعداداً للذهاب . وفرك عينيه وراح يضحك ضحكاً متواصـــلاً عميقاً لم يعرف له مثيلاً في حياته .ماهذا الحلم الغريب ؟ وكلما تذكر مقطعاً منه عاوده الضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع . أنا موظف في مؤسسة كبيرة ، ولديّ بناية ؟ وساءل نفسه ضاحكاً : نسيت ان تسأل عن الشارع الذي تقع فيه ، وكم شقة فيها ، وكم تدر عليك في الشهر ، وفي السنة ؟ وسيتضاعف مرتبك هكذا دفعة واحـدة ، وستقف امام منزلك سيارة خاصة ؟ ايهـا المسكين ألم تسمع مايقال عن اضغاث الاحـــلام ؟ ! امض الى مدرستك مسرعاً ، فعمّا قليل يصعب عليك ركوب الباص من كثرة الزحام !

* * *

كان جالساً في غرفة المدرسين يدخّن سيجارته ويرشف فنجان القهوة حين استدعاه مدير المدرسة . لم يعرف سبب الدعوة ولكنه قدّر ان هناك احـد اولياء الطلاب يريد ان يقابـله كما يحدث له بين حين وآخر .

دخل غرفة المدير فوجد لديه رجلاً طويـل الجسم ، نحيلاً ، وخيّل اليه ان تقديره صحيح ، وان هـذا واحد من أولياء الطلاب فأقبل عليه باشاً ، الاّ ان المدير قدّمه اليـه :

ـ سيادة القاضي يريد مقابلتك .

دهش ابراهيم وقال في نفسه : « ماشـــأن القاضي بي ؟ »

ولكي يبدّد القاضي دهشته، اخرج من حقيبة جلدية سوداء موضوعة بجانبه ملفاً كبيراً وبسطه امام المدير الذي بـدا حيادياً للغاية . قال القاضي للمدير :

ـ انظر الى سجل المدرّس هذا .

فأمعن المدير النظر . لم يكن امامه الا بعض الوريقـات البيض . رفع رأسه ونظر إلى القاضي ، ثم قال له :

ـ لاشيء ياسيدي القاضي .

ـ صحيـــح .

وأضاف القاضي في استغراب :

ـ انظر في صفحة الانضباط .

نظر المدير طويلاً وابراهيم صامت رابط الجأش واثـق من نفسه ومن ماضيه ثقة كبيرة .

ـ لم يسجّل للمدرس ابراهيم أي تأخر أو تغيّب طـوال السنوات الخمس عشرة .

همهم القاضي :

ـ هذه واحدة .

والتفت الى ابراهيم وقال له :

ارأيت ؟ !

فلم يحر هذا جواباً . عند ذاك طلب القاضي إلى المدير ان ينظر في صفحة العقوبات .

- ما من عقوبة البتة ،لاتوبيخ ولا انذار ولاحسم راتب .

- وهذه ثانية .

- انظر في صفحة الاجازات .

رفع المدير رأسه عن الملف في دهشة :

- سيدي القاضي ، لم يستحصل المدرس ابراهيم على أية اجازة مرضيـــة .

- هل يعني هذا انك لم تمرض طوال سني خدمتك ؟

قال ابراهيم محتجاً :

- اصبت ببعض الأمراض الطفيفة ، وكنت اؤثر ان احمل نفسي الى المدرسة ولو مريضاً من ان انقطع عن العمل .

- وهذه ثالثة .

ثم التفت الى مدير المدرسة وقال له :

- ارني تقريرك عنه.

نهض المدير وأخرج من جيبه رزمة من المفاتيح،ففتح احدى الخزائن واستخرج منها صندوقاً ففتح قفله بمفتاح صغير واخرج منه مجموعة من التقارير ، وراح يقلبها حتى عثر على صفحة خاصة بابراهيم

فحملها الى القاضي . وضع هـــذا نظارته على عينيه وراح يقرأ :
« مدرس يتعاون مع الادارة ، يعمل بجد ودأب، لايتأخر عن اداء واجبه ، يحضر الى المدرسة قبل الطلاب ، وينصرف بعدهم . . . » .

رفع القاضي رأسه ، وقال وهو يبتسم :

ـ حسناً حسناً ، لقد كنت بحاجة الى هذه الوثيقة ، وبهـا تتغلق الدائرة حول المدرس ابراهيم .

* * *

دق جرس الدرس ، فتململ ابراهيم وكأنه يستحث المدير والقاضي على انهـاء المقابلة والسماح له بالذهاب . وقدر القاضي ذلك فقال له :

لن تذهب بعد الساعة الى الصف .

خيل اليه انه اخطأ السمع فسأل القاضي :

ـ مـــاذا ؟

كور القاضي جملته ببرود ثم انتصب فبدا كعملاق كبير وقـــال له :

ـ لقد صدر الحكم عليك بالاعدام وسينفذ هنا في باحـــة المدرسة فوراً .

لم يتمالك ابراهيم نفسه فغطى وجهه بكلتا يديه .

- هل تريد ان نحضر زوجتك وأولادك لتراهم قبل ان ... -

اشار بيده ان لا ...

ومضت امام ناظريه، بأسرع من لمح البصر، صورة ابراهيم وهو يدفع ابنه الى رأس الجبل ثم غام المشهد بسرعة كما ظهر .

★ ★ ★

بسطوا في باحة المدرسة صليباً مصنوعاً من غصني شجرة هرمين ، ومددوا ابراهيم فوقه ، وربطوا كلاً من ذراعيه على احد اطراف الخشبة . ثم ربطوا ساقيه كلتيهما واوثقوهما بقوة ، وحين رفعوه بانت ثيابه القديمة .

اقترب منه القاضي وقال له :

- هل تريد شيئاً ؟ هل تحملني رسالة ؟

فلم يجبه ابراهيم بكلمة . كرر عليه القول مرة ومرة . عند ذاك حرك رأسه وانتفض جسده بعنف وصرخ :

- لاشيء سوى الرفض، انني ارفض أي شيء وكل شيء !

ثم أحنى رأسه ، كان المدرسون والطلاب يراقبون المشهد في صفوفهم .

★ ★ ★

أمام الجدار

قصــة

في نهاية الطريق ، في نهاية الطريق الطويـل ، أقعى كأنمـا أصيب بالشلل . لقد كان ذلك فوق طاقته ،وفوق أية طاقة انسانية . فمنذ سنوات بعيدة وهو يعمل ويعمل بلا ملل ، غير مبال بالتعب . وكان يشق هذه الطريق ، يوماً بعد يوم ، وشهراً في اثر شهر ، حين سلموه ادوات العمل ارتبط بها ، وشعر ان ارتباطه هـذا مصيري ، وانه سيصل بعد سنوات ، بعد عشر سنوات او عشرين اوثلاثين ، الى نهاية الطريق . كان عليه ان يشق درباً صغيراً في ارض صخرية صلدة ، وسيكون هذا العمل مورد رزقه . ليس يستطيـع الآن ، وهو في غمرة الألم ان،يتذكر كيف قطع كل هـــذه الايام . كل مايذكره تفصيلات صغيرة لاتنسى عن متاعب لاحصر لها اعترضته ، وعن الحرمان الطويل الذي ذاقه خلال هـذه الفترة . ولقد صبر له صبراً عنيداً ، كان يقدر،وكان يرجو ان يذوق الراحة والطمأنينة بعد كل ذاك العناء حين يصل الى النهاية . لقد قنع بهـذا المصير وأحبه ،

ومن اجله عمل اضعاف مايعمل زملاؤه الذين يراهم من بعيد يعملون مثله في دروب اخرى . وكما كانت تضحيته بلا حدود فان المه الآن بـــــلا حدود .

حاول ان يتحرك فوجد نفسه عاجزاً عن الحركة . نظر في يأس خانق الى ادواته مبعثرة حوله على تراب الأرض، وقد ارتسمت عليها آثار من قبضة يده وعرق جبينه. كانت ملقاة بلا حراك . نظر حوله فلم ير كائناً حياً . كان قد اعتاد ان يعيش وحده منغمراً في عمله الشاق . وشعر بشوق لاهب لرؤية وجه انساني ، وجه طفل صغير يلعب فيلمح البشر والسعادة على وجهه اوشيخ يتوكأ على العصا وهو لايفتأ يتكلم فيصغي الى كلامه المتلعثم اوساعدشاب يمداليه ذراعيه فيبعث فيه شيئاً من القوة ويقيله من هـذا الوهن ، او وجه امرأة ... آه امرأة ! لكم طرد خيالها من ذهنه ، ولكم حن اليها بعد ساعات العمل المرهقة ، كانت رغبته في الوصول الى نهاية الطريق اقوى من أية رغبة اخرى . ولم يكن يسمح لأي كائن ، مهما كان ، ان يعيقه عن مسيرته ، وتساءل في نفسه :

ـ أتراني كنت واهماً ؟

ولم يعرف جواباً عن هـذا السؤال . ورأى على مقربة منه أشجار الصنوبر والسنديان تملأ المرتفعات وتكسوها خضرة جميلة . كان كأنما يرى هذاالمنظر لأول مرة منذ سنوات بعيدة . واكتشف

فجأة جمال الطبيعة ، فأمعن النظر في هذه الأشجار الكثيفة وتأمل دقة تكوينها وجلال هيئتها. وراقب العصافير والطيور تزقزق حولها ، وتطير من غصن الى غصن فوقها ، تنقض على الأرض حيناً ، وتصعد في الجو حيناً آخر ، مصفقة بأجنحتها او باسطة لها في اطمئنان وهدوء . وخطر بباله أنه ربما كان وراء هذه المرتفعات بحر أزرق جميل الزرقة . وأرهف سمعه عسى ان يسمع صوت هديره الذي حرم منه . وتخيل أفواجاً من الناس يؤمونه ليسبحوا فيه ، سيكون هناك أطفال يلعبون فوق الرمال ويبكون ويضحكون ، وسيكون هناك ايضاً نساء من كل الأعمار ، صغار وكبار ، جميلات وقبيحات ، وكلهن يستمتعن بدفء الشمس ودغدغة المياه وحركة الموج وهو يتكسر على اجسامهن ، وسيكون هناك رجال ، رجال شتى ينعمون بدفء جمالهن ، قد تركوا اعمالهم غير آسفين عليها ، اما هو . . . فانه ههنا مايزال .

حين افاق من ذهوله ، واستعاد قدرته على تحريك عضلاته أخذ يسترجع لحظات هذا اليوم القاسي . فقد كان على مايشبه اليقين من أن عمله على وشك الانتهاء ، وانه سيخلد بعد ذلك الى الراحة التي طالما حلم بها ، وسيذوق وينعم بما حرم منه طوال هذه السنين المنصرمة . والتفت التفاتة الى الخلف فرأى ان العمل الذي أنجز كان عملاً طويلاً متقناً . ورأى الدرب الذي حفر طوال هذه السنين فاذا هو

درب مستقيم خير من الدروب العديدة التي لمحها من بعيد من صنع زملائه وأقرانه فشعر بالرضا والغبطة . لقد سار كل شيء على مايرام نتيجة جهوده . ان النقطة الـــتي سينتهي لديها العمل تلوح له الآن واضحة كل الوضوح ،وان هي الاضربات قليلة في الأرض حتى يصل اليها ، بل لقد وصل اليها فعلاً . لله سنوات العناء ، أين أنت ؟ انهـ لتبدوله ،الآن، كذكرى بعيدة حتىان الآلام التيانتابته واعتصرت قلبه والجروح التي ادمت يديه قد بهتت كلها الآن . وقال في نفسه : « أرأيت لقد كتب : من يصبر الى المنتهى يظفر ، وهـا أنت قـد ظفرت » . وفكر في بعض من رآهم يتراجعون في منتصف الطريق، ممن لم يطيقوا صبراً فآثروا السلامة والعافية وراحة البال والطمأنينة الرخيصة ، فنكثوا بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم وقـال بصوت عال : « لقد كانوا ضعفاء ، أما أنا ... » .

وقف ينتظر ... سيأتون ، لا شك في انهم سيأتون ، فها هذ مكان الملتقى ، وها هو الدرب الذي يفضي الى الواحة قـد عبده بيديه هاتين. كانت الشمس في السمت ترسل اشعة حارة محرقة في هذه الأرض العراء . وتحمل حرها اللاهب بصبر كبير .ماضر أن يحتمل الظمأ ساعة او بعض ساعة ؟ هذه هي الواحة امامه بكل جمالهـا . ان صوت خرير المياه فيهـا يكاد يصل الى مسامعه ، وهاهي افيـاء الأشجـار تنبسط على شتى الأرجاء هنالك . وتنـاهى اليه صوت

ضحكات انسانية عذبة واعدة ، فأيقظت في جسمه المنهوك الحياة الغافية ، فصفق قلبه بشوق الى متعة وارتعش ...

عند ذاك خطر له ان يصيح ،ان يدعو سيد الواحة ، وراح ينادي بصوت يجمع بين العذوبة والجلال . لم يجبه احد ولكن الأرض التي امامه تحركت هذه المرة ، وظهر شدخ عرضاني راح يتسع تدريجياً امام دهشته وعجبه . أهو زلزال ؟ أم كارثة غيرمتوقعة ؟ ومن هذا الشدخ ، وعلى نحو سريع ، بدأ يظهر الجدار ، وبأسرع من لمح البصر ارتفع جدارصلب من صخر قاس اسود وراح يمتد عرضاً ويتسع من كلا طرفيه ، فشكل قوساً أحاط به ثم أخذبالارتفاع تدريجياً حتى كاد يلامس السحاب .

اتقدت عيناه دهشة وغيظاً امامهذا الجدار المتقوس الأسود الذي احس انه يسد عليه الافق ويأخذ بخناقه ، ويكاد يكتم انفاسه وادرك على نحو غامض انه امام خطر حقيقي يتهدده ، ولكنه موقن ان ما من سبيل لدرء هذا الخطر . وبحث عن عون ، اي عون . ولم يصعب عليه ان يعرف انه كان وحيداً وانه لن يجد العون وأن الآفاق كلها مسدودة حوله . وتطلع الى الاعلى ، الى الاعالي ، فوجد السماء داكنة الزرقة ، صماء . لعل الواحة قد احتجزت صوته ولم يسمع هذا الجدار حتى برجع الصدى . . .

كانت قدمضت عليه فترة لم يسمح له الالم والدهشة بتحديدها

حينما انطلقت اصوات الابواق ، اصوات مرنة قاسية انطلقت من ابواق نحاسية . وتطلع الى الجدار ، الى ذرا الجدار الشاهقة فأبصر الابواق النحاسية . كانت تشبه الابواق التي يعرفها ، ولكنها تفوقها طولاً على نحو مرعب . قال في نفسه : « ماطول هذه الابواق ، انني لم أر في حياتي كلها شبيها لها ! » ومع ان ذرا الجدار كانت بعيدة عنه فقد بدت له الابواق على مثل هذا الطول فقال : « عجباً ! كيف تبدو هذه الابواق عن قرب ؟ ! »وظهرت لهمن بعد رؤوس النافخين فيها واستطاع بمشقة أن يتبين وجوههم . كانت وجوها صلبة كالصوان ، كحجارة الجدار نفسه ، وكانت عيونهم صغيرة كالنقط السود تنفذ اليه من عل . استمر الرجال ينفخون في ابواقهم على نحو متتابع لا توقف فيه ،وعلى وتيرةواحدةلاتعلو ولاتنخفض. ولما توقفوا برزت آنذاك من أعلى السور ، رؤوس اخرى . خيل اليه انه يعرف قسمات هذه الوجوه. كانت بعض تلك الرؤوس لرجال ملتحين طاعنين في السن واخرى لشبان وغيرها لكهول . ونظرت اليه كل تلك الوجوه نظرات لامبالية . ولم تلبث ان اختفت كما ظهرت . وخيل اليه انها كانت تنزل سلالم خفية من الطرف الآخر من الجـــدار . ولم يبق امامه الا نافخو الابواق الذين عادوا ينفخون نغمتهم الرتيبة الخانقة .

لم يحاول ان يسأل ولم يحاول ان يفهم كذلك ، فقد بلغ به اليأس اقصى مايمكن ان يبلغه بالكائن الحي.فوقف كأنه مسمر

في الارض ، وكأنما فقد للحظات كل شعور او حس انساني وسط هذا الفراغ الهائل المحدق به . وغير بعيد منه كانت تثوي ادواته ، ادوات العمل التي ارتوت من لحمه وعرقه ، وخلفه كان يمتد الدرب ، طويلا مستقيماً كما ينبغي ان يكون في اعتقاده ؛ رمى احد نافخي الابواق بوقه فسقط في الطرف الآخر من الجدار . وبعد لحظات سمع صوت ارتطامه الحاد بالارض ، فانتشله الصوت من جموده وراح ينظر الى النافخ في استياء فرآه يبادله النظرات. اراد ان يقول شيئاً ، ان يناديه ، ان يسأله ، ولكن حنجرته كانت متصلبة ، متشنجة ، فلم يقو على الكلام . الا انه رأى ان نافخ البوق يحرك يديه فتطلع اليه فاذا هو يتهيأ للكلام، وقد وضع يديه امام فمه على شكل بوق ليوصل كلامه اليه . فأصغى بكل حواسه ، بأعضاء جسمه كافة ليلتقط كلماته . ماذا عسى ان يقول وهذا الجدار يقضي على كل قول ويقف امام كل امل في الوصول .

تناهى اليه صوت نافخ البوق. نحاسياً اجش، والتقط من هذا البعد الشاسع كلماته . كان يقول له :

ـ لقد انهيت عملك بشكل حسن ، وانه لعمل مرض .

احس كأنما ردت روحه اليه ، وعاوده بريق من امل كان قد هرب من حنايا نفسه ، واضاف نافخ البوق :

ـ ان عملك مرض ، والدرب الذي حفرته خلال هذه السنوات لا بأس به .

شعر بمزيد من الارتيــاح وبشيء من السرور . فاستجمع بقيّة من قوّة كانت فيه، وشيئاً من شجاعة كانت على وشك الاختفاء وقـــال له :

- وهذا الجدار ؟ كيف السبيل الى عبوره ؟

حرّك نافخ البوق يده كأنه يقول له : لا ! ثم قال:

- أما الجدار فلن تجتازه ، ولقد أوكلنا الى هؤلاء حراسته.

وأشار الى عدد من الرجـال فبرزوا حول الجدار مدججين بالأسلحة ، تلتمع في ضياء الشمس خوذهم النحاسية وسيوفهم المعدنية ودروعهم البيض . وامتشق الحراس سيوفهم بعد ان وقفوا في أماكن محددة لهم تفصل بينهم مسافات متساوية ، استعداداً لحراسة الجدار.

قال وهو يصرخ :

- اذن لماذا كان ذلك العمل كله ؟

أجابه نافخ البوق ، وابتسامة صفراء تلتمع على وجهه :

- لم يذهب عملك سدى !

ثم أضـــاف :

- يقول لك السيد ان عليك أن تبدأ العمل مرة اخرى .

فهتـــف :

- مرة أخرى ، والسنوات التي امضيت ؟

أجابه نافـــخ البوق :

ـ هذا ماقاله السيد ، عليك أن تبدأ العمل مرة اخرى . وينبغي في هـذه المرة أن تبذل مزيداً من الجهد في حفر الدرب ولكن أوسع وأعمق ، هل فهمت ؟

حاول ان يتشبث بمكانه ونظر نظرة تحد الى الأعلى . كان يريد أن يبقى ههنا وأن يلج الى ماوراء الجدار . و كأنما لحظ نافخ البوق ذلـك فاشار الى الحراس اشارة ما ، وانحنى الحراس الى الخلف ، والتقطوا حجارة صغيرة وراحوا يحصبونه بها . وكانت هذه الحجارة الصغيرة الدقيقـة اما أصابت جسمه تحوّلت الى قطع من الجمر الأحمر الملتهب .

أدرك ان كل نقاش أمسى غير مجد . فنظر نظرة أخيرة إلى نافخ البوق وقال له في يأس ونقمة :

ـ وهل أرى الجدار في المرة المقبلة يحول بيني وبين الدخول إلى الواحة ؟

ـ أنى لي أن اعرف ذلك ؟

وخطر له سؤال اخير :

ـ ومن أين عسى ان ابدأ ؟

أجابه نافخ البوق و كأنه على عجل من انهاء الحديث :

ـ ستبدأ من البداية .

ـ من البداية ؟

ـ أجل ، من بداية البداية ! !

عند ذاك بالتدقيق أقعى كأنما اصيب بالشلل . كان يشعر أن طاقته قد هربت منه . وبعد زمن لايقدر أن يحدّد كم امتدّ رأى أن عليه أن ينهض مها كلف الأمر ، فليس يستطيع أن يظل على وضعه ذاك ابد الدهر ، وان كان ، في اعماقه ، يتمنى لو بقي في مكانه .

نفض الغبار عن ثيابه وجسمه ونهض ليسير وهو لايدري الى أين يتجه .

* * *

كانت الشمس قد جنحت الى المغيب حين لمح ذلك الشخص الغريب متجها نحوه عبر الأراضي البور . كان كهلاً مهيب الطلعة ذا لحية طويلة بيضاء ، وعلى جبهته تجعدات عميقة . جذبته عيناه ، عينان صافيتان عميقتا الغور لا لون لها ، عينان موحيتان فيهما نبل وجلال وسكينة كثيبة . واذ اقترب منه حياه ، فتوقف ليرد على تحيته ، وسأله :

ـ من أنت ايها الغريب ؟ لقد اقمت في هذه الأرجاء سنوات ولم التق بك ؟

كان يشعر بشيء من الارتياح والطمأنينة وهو يحدثـــه ، رغم كل الم ويأسه .

اجابه وصوته مزيج من الحنان والوقار :

ـ أنا العرّاف . لقد لمحتك من بعيد ، فأقبلت اليك ، فقد تكون بحاجة الى مساعدتي .

كانت عينـاه الصافيتان وحدهمـا تتكلمان في تلك الأرض المقفرة الخالية من كل حنان انساني . وخطر بباله ان يفضي اليه بمـا ألم به ، فسارع العراف يقول له :

ـ اعرف كل ماجرى لك وكل ماتشعر به .

فصرخ من اعماقه :

ـ ولكنني اتألم .. وانا وحدي !

قال له العراف :

ـ ان الانسان يتألم دائماً وحده .

ومرت فترة صمت باهظة ، فالتفت الى العراف وقال له فيما يشبه الضراعة :

ـ سأضطر الى ان اعمـل مرة ثانية وانفق سنوات كثيرة من عمري .

قال له العراف :

- حتى لو عملت مرة ثانية فسوف تجد هذا الجدار ينتصب امامك حين ينتهي عملك. ولو عاودت العمل مرة ثالثة ورابعة فلسوف تجد الجدار ذاته ينتصب امامك في كل حين .

فسأله في ألـــم :

- وماذا عن العذاب والألم والصبر الطويل والعمل المضني؟

فلم يجبه العراف .

صرخ في وجهه كمن اضاع صوابه :

- لقد نكثوا بوعدهم و كذبوا علي اذن، لقد كانوا يكذبون.

وتفل حوله، وكان ماتفله دماً احمر قانياً كأنه قطعة من كبده.

قال العراف في تأس :

- لم يكذبوا عليك ولكن هذه هي طبيعة الحياة . لقد اخترت انت هذا الدرب وستظل تعمل فيه مهما كانت النتيجة .

هز رأسه كمن لا يصدق اذنيه ، ورفع بصره فالتقى بعيني العراف وقـــال له :

- كل ماحولي كذب . ان الحياة اكذوبة كبرى .

فابتسم العراف واجابه :

- أجــل .

ثم اضــاف :

- أرأيت انك لم تضع وقتك سدى ؟

قال الرجل بعد هنيهة وعيناه تبعثان الشرر :

ـ والآن ؟ من اين ترى ان ابدأ ؟

ـ ابدأ من البداية ، من بداية البداية ، فليس لك خيار في ذلك ، لأن هذا الجدار سيظل هنا مادمت قربه ولن تستطيع أن تتقدم خطوة وراءه . أما البداية فهي في متناول يدك .

اذ ذاك بحث عن أدواته .

كان العراف ينظر اليه نظرات صامتة بعينيه الصافيتين .

★ ★ ★

الجريمة

الحقيقة أن ما حدث له كان فوق تصوره واحتماله . وكان عليه ، في نهاية الأمر ، وهو الانسان الوديع المسالم ، أن يقدم على ما أقدم عليه : ذلك بأن قدرته على التحمل قد بلغت نهاية حدها ، ففقد طاقته على الصبر واتخذ ذلك القرار الحاسم وهو في ذروة توتره وضيقه وبرمه ، آملاً أن يجد فيه الخلاص والطمأنينة ، بعد أعوام طويلة من العذاب والألم..

فمنذ سنوات ، منذ سنوات عديدة بعيدة لا يستطيع أن يحددها ولا أن يجد اليوم الذي بدأت فيه هذه الأزمة ، وهو يكره نفسه على التحمل والصبر . ولقد بذل جهداً حقيقياً صادقاً ليغوص في أعماق ذكرياته ، ذكرياته البعيدة الباهتة التي تعود الى سني طفولته واستطاع أن يجد بعد لأي طويل تلك الصورة ماثلة أمامه . أكان في السابعة من عمره أو في الثامنة ؟ إنه ليعجز عن تحديد ذلك . فهو يذكر ، في ذكرى مشوشة غامضة ، ان النهار كان قاتماً ، وان اليوم كان يوم عطلة ، ربما كانت العطلة بعد الظهر فقط ، او بداية عطلة طويلة ، كل ما يذكره أنه عاد من المدرسة ظهراً ، وتغدى

مع ذويه ، مع أمه وأخته الصغيرة ، فقد كان أبوه غائباً عن المنزل ، أو هذا ما يتذكره على أحسن تقدير . في ذلك اليوم حار ماذا يفعل وكيف ينفق وقته الطويل بعد الظهر ، فلم تكن لديه دروس يشغل بها نفسه . وكانت السماء غائمة والأرض مبللة بمياه الأمطار التي تساقطت في الصباح . خرج الى الحي فوجده خالياً ، فاضطر أن يعود الى المنزل . كانت أمه ترفو بعض الجوارب المهترئة ،وشعرت بحيرته وضجره . قالت له :

- ما بك ؟ أراك تخرج ثم تعود .

فلم يدر بماذا يجيبها . البيت خال موحش . والسماء ملبدة بالغيوم ، والحي ساكن هادىء ، جلس على الخوان الطويل في الغرفة وأسند رأسه الى الحائط وود لو ينام .

قالت له أمه :

- نم ، إن كنت نعسان .

وحاول أن ينام ، ومضت فترة طويلة ، وهو في جلسته تلك ، إلا أنه لم يستطع أن يغفو ، فنهض وقال لأمه التي كانت منهمكة باطعام أخته الصغيرة :

- سأبحث عن أحد ألعب معه أو أحادثه .

مضى يجرر أقدامه في الحي . كانت الأبواب مغلقة والبرد قارساً . وبحث عن رفيقه الوحيد ، ابن السمان ، فلم يجده في دكان.

أبيه . كان متغيباً لسبب لا يعرفه . ووجد نفسه مسوقاً الى العودة والجلوس حيث كان : عند ذاك بالتأكيد ، برزت أمامه ، ولأول مرة في حياته فيما يذكر ، تلك الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأشقر الناعم . كانت ترتدي ثوباً رمادياً نظيفـــاً ، وليس يدري من أين جاءت ولا كيف دخلت ، كان واثقاً أنه يراها للمرة الاولى . وانه لم يسبق لها أن وطأت باب منزلهم .

قالت له الفتاة :

ـ تعال نلعب معاً !

كانت كلماتها تفيض أسى وكآبة . وتفرس في وجهها فرأى فيه شحوباً وذبولاً ما سبق له أن رأى مثلها .

لم تنتظر منه جواباً ، والحق أنه كان عاجزاً عن الكلام ، فجلست الى جانبه وشرعا يتحدثان . كان كلامها شبيهاً بحمل يثقل على كتفيه وقلبه . وبينما كان يصغي اليها ، أخذت السماء تمطر مطراً خفيفاً متصلاً . ولم يعرف كيف أغفى في مكانه ، وحين استفاق من نومه كان والده قد عاد من عمله ، وأضيء النور في الغرفة ، وكانت أمه تهيء طعام العشاء واخته تلعب بدميتها الصغيرة .

وبحث في الموضع الذي كانت تجلس فيه الفتاة فلم ير لها أثراً . وعجب كيف خرجت ، وكيف نام ، فود لو أنه لم ينم . وخطر له أن يسأل أمه عنها . ولكنه خشي أن تسخر منه ، فلا عهد

للأسرة بقريبة أو صديقة او جارة في مثل هذا العمر او هذا الشكل. وطوى النسيان صورتها سنوات ، حتى لقد خيل اليه أن ما كان من أمر الفتاة الصغيرة ذات الشعر الاشقر الناعم والوجه الشاحب الذابل لا يعدو أن يكون حلماً من الاحلام .

إلا أنه تأكد فيما بعد انها لم تكن كذلك . فقد عاودت زيارته مرات لا حصر لها في سني مراهقته وقد طالت قامتها قليلا رغم احتفاظها بقسماتها وملامحها ، فكان يقرأ لها صفحات من كتب يحبها وكانت تصغي اليه باستمرار وعلى وجهها ذاك الأسى الذي لا يمكن أن ينسى ولا أن يفسر ، كما كان يقرأ لهـــا ، على خجل ، بعض المقطوعات الشعرية التي يكتبها ، ويتحدث فيها عنها وعن أساه ووحدته . وكانت في كل حين تدخل عليه كضوء الشمس بـــلا استئذان ، وتخرج حين يحلو لها او حين تراه وقد انبسطت أساريره وراح يبتسم او يضحك .

أما حين دخل الجامعة فانها لم تزره قط . ويبدو أن الدراسة الجادة قـد فصلته عنها حتى أنه لم يعـد يتذكر ملامح وجهها واعتبر وجودها منتهياً .

ثم عادت الى زيارته فيما تـلا ذلك من أيام ، وازدادت زياراتها تواتراً . كانت تظهر ، فجأة ، بتقاسيم وجهها الشاحب نفسه وشعرها الأشقر الناعم وثوبها الرمادي . لم يتغير فيها شيء البتة ،

اللهم إلا هذا النمو البادي عليها . وغدت مع مرور الأيام أميل الى الهدوء والسكينة . لم يكن يريد أن يراها ولا أن يخاطبها ، فقد بدأ يشعر أن وجودها يثقل عليه وانه لم يعد قادراً على تحمله ، بل لقد استحال مع الايام كابوساً يخاف منه ويسعى للفكاك من وطأته التي تسحقه . ولقد خطر له ان يطرد هـــذه الفتاة التي تلاحقه كظله وتمومعه . ولكنها ، في كل مرة ،كانت تسخر منه ،ولا يزيدها ذلك الا تشبثاً به . . كانت تطل عليه في وحدته فتجلس صامتة ساعات حتى اذا عنّ له أن يعمل أو يكتب ، غادرته بصمت . واكثر ما يضايقه منها أنها كانت تتسلل إلى منزله وهو جالس مع زوجته . لم تكن تفعل ذلك في السنوات الاولى لزواجه ، ولكنها بعد مضي بضع سنوات لم تجد بأساً من التسلل . ولطالما تمنى أن ينتهرها أمام زوجته ، ولكنه في كل حين كان يتمالك نفسه خوفاً أن تظن زوجته أنه جن . وفي الحق فان تكرار زياراتها كاد يدفع به الى الجنون . وفي ذات مرة ، وقد بلغ به الالم حداً أخرجه عن طوره صرخ في وجهها يقول : « اخرجي ، عودي من حيث أتيت » . واندفع نحوها يريد ان يطردها او يضربها . الا انها كانت ماهرة في الهروب والاختفاء ، وسمع من بعيد ضحكة حزينة اسيانة ونشيجاً متقطعاً . لم تأخذه الشفقة عليها بل راح يمسح دموعه . هل يستطيع ان يقسو على هذه الفتاة الناحلة النحيلة ذات الشعر الاشقر والثوب الرمادي ؟ وبدت لدهشته ، وكأنها لم تتأثر بما قال او فعل . وها هي تتسرب

اليه خلسة ، في فراشه ، وزوجته نائمة على ذراعه ، فتفصل بينهما . وشعر آنذاك كأن بحراً لا شواطىء له يفصله عن زوجته ،ومسحت عينيه المؤرقتين ليغفو ، ولكنه لم ينم تلك الليلة حتى مطلع الفجر .

أدرك ، آخر الامر ، أن عليه ان يقدم على عمل حاسم . وكان يعرف مسبقاً أن طرد هذه الفتاة امر مستحيل . فهي تستطيع ان توافيه متى شاءت ، ولقد حاول ان يصرفها عنه فلم يفلح . ولا شك في انه فكر طويلا وتردد كثيراً ، قبل ان يعقد العزم على قتلها ويبيت هذه الجريمة . فلقد لزمته شطراً طويلا من حياته ، وداعب شعرها الاشقر الناعم ومسح بيديه على ثوبها الرمادي ، ونشأت بينهما الفة كانت تحمل في طياتها العذاب والالم والاسى ، وكان هو ، في مرات قليلة نادرة ، يستطيب هذا الاسى . ولكنه ، على كل حال ، كان يريد ان يحيا حياة مطمئنة في عمله واسرته ومع زوجته . وبدأ وجود الفتاة ذات الشعر الاشقر يشكل عبئاً لم يعد قادراً على تحمله ، وكان اكثر ما آلمه في الآونة الاخيرة هذا الفراغ الذي كانت تخلقه بينه وبين زوجته .

وبرزت المشكلة أمامه على النحو التالي : بأية طريقة يقتلها ما دام قتلها أمراً محتوماً لا مهرب منه ؟ وكان عليه ان يدرس شتى الطرائق التي يمكن ان ينفذ بها الجريمة ، بعد ان اتخذ قراره الحاسم الخطير ذاك . وخطر له أول ما خطر أن يسقيها شراباً قاتلا . ولكنه

سرعان ما تذكر أنها طوال علاقته بها لم تذق شـــيئاً مما يطعم أو يشرب . فاستبعد الفكرة بسرعة . وكان أمامه حل واحد هو أن يخنقها بيديه . وتردد بعض التردد ، أهو قادر على أن يخنق إنساناً ولو كان نحيـل الجسم ؟ ولكنه حين وازن بين التحرر منهـــا والعيش بطمأنينة ، وبين الإقدام على القتل لم يتردد طويلاً ، وصمـم أن يستعمل يديه كلتيها فيضغط على عنقها وينتزع حياتها ، وله بعد ذلك أن يهدأ ويستريح .

لم يكن يعلم على وجه الدقة متى ستزوره . قال في نفسه : « لا أهمية لذلك ، ففي أول لقاء يكون بيننا بعد الآن سأمضي فيما قررت المضي فيه ، وليكن بعد ذلك ما يكون » . إلا أن العجيب في الأمر أن مدة طويلة انقضت قبـل ان تزوره الفتاة ذات الشعر الأشقر . ولكنها على حين غرة ، برزت أمامه كخيط من خيوط الفجر ، كبرعم يتفتح لأول مرة ، بثوبها الرمادي وجسمها النحيل . قال في نفسه : « لقد حانت ساعة الخلاص » . ونظر اليهـــا نظرة لا تخلو من حنو كمن يودع شخصاً يحبه ، بل لقد تردد لحظة واحدة ، لحظة قصيرة كومض الطرف ، إلا أن رغبته العارمة في التخلص منها سرعان ما دفعت به دفعاً فقرب ذراعيه الشابين من عنقها النحيل . . .

* * *

استيقظت زوجته مذعورة على صوت الصراخ ، وهبت من فراشها وأضاءت النور الكهربائي بجانبها بسرعة . كان الصوت حاداً قاسياً عنيفاً أليماً أيقظ الزوجة وبعث الفزع في جسمها كله .

لم تعرف أول الأمر مصدر الصوت . كان نعاس ثقيل يأخذ بجفونها . وحدقت في فراش زوجها فلم تتبين للوهلة الاولى شيئاً . واقتربت منه وجلة خائفة ترتجف .

كان آنذاك مايزال يضغط بكل ما أوتي من قوة فأمسكت بيديه وراحت تهزه هزاً عنيفاً .

ورأى في المرآة المواجهة له في غرفة النوم ، وقد انعكس عليها نور الكهرباء ، آثار أصابعه في عنقه هو ، كانت آثاراً حمراً تجمد الدم في أجزاء منها فاستحالت زرقاء اللون وقد احتبس الدم فيها أو كاد .

* * *

الصعود الى الجلجلة

قلت لنفسي : ما كان ينبغي أن يحدث ذلك ، ولكنني أعترف أن ما حدث لم يكن لي فيه يد ، وكنت عاجزاً عن رده او ايجاد حلّ له .

فمنذ حوالي خمس سنوات اضطررت الى لزوم البيت . كان ذلك بعد احالتي على التقاعد بثلاث سنوات . وفي حين كنت قد بنيت ، منذ سنوات بعيدة ، احلاماً واسعة حول كيفية التمتع بهذه المرحلة من حياتي بعد ان انهكني العمل وانتظرت الراحة آخر الأمر ، اذ بي اصاب فجأة بالروماتزم في مفاصل ساقيّ ، مما جعلني اجد صعوبة كبرى في التنقل بين غرف داري الواسعة ، حتى ان الذهاب من غرفة النوم الى غرفة المكتبة يقتضيني جهداً وألماً كبيرين . اما النزول الى الشارع والذهاب الى المقهى فقد غدوا في حكم المستحيل نظراً لأن دارنا تقع في الطابق الرابع من بناية مرتفعة ضاربة في السماء . وحين استأجرنا هذه الدار – قبل عشرين عاماً – لم تكن المصاعد الكهربائية

قد وصلت الى بلادنا ، لذا فلم يحسب لها المهندس الذي صمم البناية اي حساب ابّان تخطيط البناء . ولقد طالبنا المالك ورجوناه غير مرة ان يبحث عن طريقة لادخال المصعد الكهربائي الى البناية ولكنه كان دائماً يتعلل باستحالة ذلك من الناحية الفنيّة ، مما اضطررنا خلال هذه الفترة ان نصعد وننزل على اقدامنا . ولقد خطر لنا بعد ان ازداد عدد افراد الأسرة ان نترك هذه الدار وننتقل الى غيرها . الا ان ذلك كان حلماً صعباً ومطمحاً صعب التنفيذ ، فليس لدينا المال الذي يسمح بالقيام بمثل هذا العمل ، وليس في البلدة دور للايجار . فصرفنا النظر عن هذا الموضوع نهائياً ، وتحمّلنا المشقة مكرهين على الصبر عليها . ونصحني الطبيب ان اتجنب ما امكن الصعود والنزول فامتثلت لنصحه ، وبعد ان كنت انزل مرات عديدة في اليوم اقتصرت تدريجياً على الصعود والنزول مرتين او ثلاثا وحسب ، حفاظاً على صحتي وقلبي . ثم المّ بي الروماتيزم فأقعدني نهائياً عن الصعود والنزول، ورحت اقضي معظم اوقاتي في المطالعة التي احببتها منذ القدم ، وفي قراءة المجلات والجرائد التي يحملها اليّ البريد كل يوم . وقد تكفّل أولادي – وفقهم الله حيثما كانوا – بفتح صندوق البريد مرة كل يوم ، وحمل ما فيه اليّ ، ذلك بأن ساعي البريد كان قد طلب الينا منذ انتقالنا الى هـذه البناية ان نضع صندوق بريد خاصاً بنا في مدخلها اذ يتعذر عليه الصعود الى الطابق الرابع ففعلنا. واذكر انني اشرفت بنفسي على انتقاء صندوق بريد كبير الحجم

جميل المظهر ، وطلبت الى النجار ان يطليه وان يعلـّقه قرب مدخل البناية . وكنت امّا تعبت من القراءة او آلمتني عيناي ـ فـأنا اشكو ضعف البصر منذ زمن بعيد ـ لجأت الى المذياع استمع الى شتّى المحطّات ومختلف البرامج بين اخبار واحاديث وموسيقا ، فأجد في ذلك تسلية ومتعة. فاذا حلّ المساء اغلقت الكتب وطويت الصحف والمجلات وتحوّلت عن المذياع الى جهاز التلفزيون اتابـع براجه . فقد كنت من اوائل الذين ادخلوا هذا الجهاز الى بيوتهم في مدينتنا . وحين كان يناقشني بعض اصدقائي في امره وفي صرفه الأولاد عن الدراسة ، كنت اجيبهم بأنني ادّخره للفترة التي سأحال فيها على التقاعد ، حين سأضطر الى المكوث في البيت مع زوجتي ، وكنت اعتقد جازماً انه سيكون خير مسلّ لنا في ليالي الشيخوخة الطويلة .

والى جانب ذلك كلـّه فانني اعتمد على الهـاتف فأتصل بأصدقائي القدامى جميعاً ، ومـا اكثرهم ، فأحادثهم في مكاتبهم اذا كانوا مـا يزالون موظفين ، او في منازلهم اذا كانوا قد احيلوا على التقاعد مثلي . وتستمر هذه المكالمات زمناً غير قصير ، فأعرف كل صغيرة وكبيرة عنهم ، واعرف ما يدور في المديرية التي كنت اعمل فيها . وكانوا يحدثونني عن همومهم ومشاغلهم اليومية واحوالهم الصحيّة احاديث مسهبة فأشعر لذلك بمتعة لا تعد لها متعة .

هـذه الأشياء كلـّها التي تحيط بي والتي قدّرتها سلفاً احسن

تقدير واتخذت كل الحيطة في سبيل تأمينها على افضل وجه كانت تمنحني طمأنينة وراحة لا يتمتع بها اكثر الناس . وفوق هذا وقبله كانت هناك زوجتي ، صديقة العمر ورفيقة الآلام والمسرات ـ سامحها الله ، كيف استطاعت ان تفعل ذلك ـ تصنع لنا القهوة كل ساعتين او ثلاث وتجلس الى جانبي نرشفها معاً ونتحدث على نحو مستمر دون ان نشعر بمرور الوقت . وكان ذلك ينطوي على سعادة لم اعرف قيمتها الا الآن .

حين قرر اولادي الثلاثة ان يهاجروا الى بلد ناء غريب شعرت بألم حاد لفراقهم وتخيلت مدى الصعوبات التي سيعانونها هناك والآلام التي ساعانيها هنا . ولكنهم كانوا متحمسين لهذه الغربة سعياً وراء مستقبل افضل وحياة ارغد . ومع أنني نصحتهم كثيراً الا ان التفاهم معهم كان ضربا من المستحيل فلم يعيروا نصحي التفاتا . غير ان الكارثة الحقيقية كانت في رغبتهم واصرارهم على اصطحاب امهم معهم ، وفي تعلقها المفرط بهم حتى لتعجز عن العيش اذا هي انفصلت عنهم . وهكذا سافروا وكان رحيلهم ألماً مراً متصلاً بالنسبة اليّ . صحيح انني لا اشعر بأية حاجة مادية وان مرتبي التقاعدي يكفيني ويزيد، ولكنني أشعر بوحشة في البيت ، لايستطيع احد ان يعمرها بعدهم . اني لأرى البيت بعد سفرهم بارداً كالقبر ، وتطفر بعض الدمعات من عيني احياناً حين انظر الى اماكنهم الخاوية او أتذكر

زوجتي البعيدة - غفر الله لها هذه الفعلة - لقد ظنت ان هذه الخادمة العجوز قادرة على ان تحل محلها ولكن هيهات ! ان الانصاف يقتضيني ان اعترف انها خادمة مخلصة امينة تعمل بجد طوال النهار ولا تدخر وسعاً في رعايتي والاهتمام بطعامي وشرابي ، وهي تسعى جاهدة لارضائي . صحيح انها لاتستطيع ان تنزل الى الشارع مرات عديدة في اليوم لأنها طاعنة في السن ، ومع ذلك فهي لاترى بأساً ارضاء لي ، في ان تحمل الي الرسائل والصحف من صندوق البريد ظهر كل يوم. الا انها-واأسفاه- مصابة بالصمم،لهذا فانني لااستطيع ان احادثها ، وتبدو هي زاهدة في الكلام الا فيما ندر . وأنى لي ان احادثها وعالمها غير عالمي ، وليس بيننا شيء مشترك . انني استمتع بقراءة الرسائل التي ترسلها الي زوجتي واولادي ، وقد ابروا بعهدهم حين وعدوني قبل سفرهم بأن يكتبوا الي باستمرار ، والى اليوم لم تنقطع عني رسائلهم . انني اقرأ هذه الرسائل مرات ومرات واستعيد قراءتها فيزداد حنيني وحبي لهم . ولولا غيابهم لما شكوت من شيء ولكنت اسعد انسان في هذا العالم . ان اللحام والخباز وبائع الخضار يتكفلون بأن يرسلوا الينا يومياً كل مانحتاج اليه من خبز ولحم وخضار . كما ان احد اصدقائي القدامى الذي افتتح دكاناً في السوق قد دأب على ان يرسل الي اجيره بين حين وآخر لأكلفه بتأمين مانحتاج اليه من سكر وبرغل وأرز ومعلبات وقهوة وشاي وغيرها .

حين كسر اولاد الأزقة صندوق البريد ،واني لأؤكد أنهم هم الذين كسروه ،شعرت بكثير من الغضب والنقمة . فقد اعلمتني الخادمة انها وجدت الصندوق مكسوراً ، وليست تدري متى كسر ولا من كسره . فطلبت اليهــا ان تتصل بأحد النجارين ليصلحه . وتأخر اصلاحه اكثر من اسبوع ، وفي اثناء هـذا الأسبوع ضاعت بعض الصحف ، وفقد كثير من الرسائل . وكسر للمرة الثانية بعد فترة وجيزة فاحتار ساعي البريد وراح يضع الرسائل والصحف لدى بعض الجيران فتتناقص وتختفي . واستطعت بعد لأي ان اؤمن عن طريق الاتصالات الهاتفية صندوقاً جديداً ، فاطمأنت نفسي فترة ما فاذا بالصندوق يحرق،كما أنبأتني الخادمة،عند ذاك كدت افقد صوابي . ولكن ماضاعف حنقي وألمي انني لم استطع ان اتصل بأحد عن طريق الهاتف فقد كان معطلاً ، أهو معطل فعلاً أم انهم قطعوه عني لأنني لم اسدد رسم الاشتراك ؟ انى لي ان اعرف ذلك ؟ !

استأت كثيراً وتشاءمت حين كسرت الخــادمة شاشة التلفزيون في حركة طائشة اثناء قيامها بتنظيف البيت - وما اكثر ما تبالغ في عملية التنظيف هذه - فحرمت من وسيلة ممتعة كنت اتغلب فيها على وحدتي في الليالي الطويلة. لقد تعذر علينا الاتصال بالمصلحين. طلبت من اجير الفران واجير اللحام ان يذهبا الى المصلح المختص مرات عديدة وفي كل مرة كنت اعطيهم مبلغاً من المـــال مغرياً ،

ولكنهما كانا يكذبان عليّ دائماً . واخيراً قررت الخادمة أن تستدل على مكانه وتذهب اليه بنفسها. اضاعت يوماً كاملاً في البحث عن محله، ثم عادت آخر النهار تقول لي انه لايستطيع الحضور ، فلنحمل له التلفزيون الى محله ، وتذكرت بعد ساعة انه قال لها انه لايملك شاشة يضعها مكان الشاشة المحطمة .

لم افكر قط ان المذياع سيصاب بمكروه . ولكن هذا ماحدث ، فقد توقف امس، ولا ادري ماذا اصابه . لو كان ابني الصغير هنا لأصلحه . انه يرسل ضوءه الأخضر على عادته ، ومصابيحه تشتعل وتتقد كلها ، ولكنه ، بكل بساطة ، يرفض ان يتكلم . وعبثاً حاولت تحريكه واصلاحه . ولما استبد بي الغضب رحت اضربه ضرباً مبرحاً ،ولكن بلا جدوى . كيف السبيل الى اصلاحه؟ رجلاي تؤلمانني وانا لااستطيع النزول الى الشارع ، ومحل مصلحي مثل هذه الأجهزة بعيد عن بيتنا،بعيد جداً . لو ان اصدقائي الشيوخ قادرون على زيارتي لوجدوا لي حلاً لبعض هذه المشاكل ، ولكنهم طاعنون في السن . اعتقد جازماً انهم يتصلون بي يومياً بالهاتف ، ويقدرون انه معطل فيتألمون .آه لو ان حلاقي الأخرس الذي يزورني كل اسبوعين كان قادراً على الفهم . . ولكنه جامد كالتمثال ، لا يعرف شيئاً سوى حلاقة الذقن وقص الشعر . . .

أشعر بالاختناق واكاد اتمزق . لقد انقطعت كل الروابط فكيف اتصل بالعالم ،وانى لي ان اعرف اخبار اولادي وزوجتي؟!

أجلس من الصباح الى المساء في الغرفة وحدي . اتوقع ان يطل علي بوجهه الكريه ، فأرتعد فزعـــاً ، أراه يترصدني ، يتتبع خطاي فأحاول ان اهرب، الا ان ساقي لاتقويان على الهرب فأمضي بكل مابقي في من قوة ، الى منضدتي اجلس اليها لأكتب . انني لا افتأ أكتب واكتب . وانا انما افعل ذلك هرباً منه ، وحين املأ الصفحات البيض بسطوري السود أشعر انني تغلبت عليه مؤقتاً وصرفته عني بعض الوقت ، وانني اقوى منه الى حين . ثم اتساءل في نفسي حين تعلو تكتكتة الساعة الكبيرة في بهـــو المنزل : اتراني قادراً على ذلك حقاً ؟؟

* * *

اللوحة

كان يمسك بين يديه النحيلتين المعروقتين مجموعة من الصور المنسوخة عن عدد من اللوحات الفنية . ليس يدري لماذا أخذ نفسه بتصفّح هذه المجموعة الآن ، بينما هو جالس وحيداً في غرفته . كان العمل في ذاك النهار الطويل مرهقاً ، وزادت ساعات الأصيل الشاحبة من شعوره بالغم . يتمنى أن يفتح النوافذ كلها ، يود لو كان للغرفة مزيد منها . يضع مجموعة اللوحات على حجره ، يفتحها ويقلبها كيفما اتفق . تتراقص امام عينيه الألوان المنبعثة من اللوحات . ألوان متنوعة متباينة . لا يرى في اللوحات إلا الألوان ، فيضاً من الألوان ، من كل الالوان ، وينبوع من اللون الأبيض ينبجس في كل صفحة . أما عيناه المتعبتان فلا تكادان تميزان الخطوط والأشكال والحجوم . تتزاحم الصور أمام عينيه ، وهي مبسوطة أمامه ، منتشرة ، متداخل بعضها في بعض ، حتى لكأنها لوحة جديدة منسوخة من مزق اللوحات . في مزقها يرى أطرافاً من نفسه هنا وهنا . يتمنى ، يريد أن يختفي تمزّق اللوحات ويعود الى النفس انسجامها . إلا أن يديه تعجزان عن لمّ شتات اللوحات وإعادتها الى سابق عهدها . تمثال من

البلور تفتت في مساحة صغيرة من الأرض ، لم يفقد تقاطيعه وملامحه ولكن لا سبيل الى إعادته الى سابق عهده . يسمع صوت معلمه يقول له : « اليأس خطيئة » يجيبه بهدوء : « لست يائساً » . ثم يناديه من بعيد : « أما أنا يا معلم فأرى الخطيئة في ألا نحقق ما نريد ولا نصل الى ما نبغي » . رقبته معلّقة بحبل غير مرئي . يكفي أن يحز الحبل بنصل سكين حتى يترنّح ويتهاوى .

يداه فوق اللوحات حانيتان ، كليلتان . يطبق اللوحات بعضها فوق بعض باحكام . تختفي الأطراف وتغور المزق ويعود للمجموعة انسجامها . يضيق الحيز الذي كانت تشغله . هي الآن لوحة واحدة ذات كثافة كبيرة ، ورقة واحدة مصقولة مؤطرة . يسحب من وسط المجموعة لوحة ويضعها فوق سائر اللوحات . يمعن فيها النظر ، يدقّق الرؤية . عجباً ، هذه لوحة جديدة لم يسبق له أن رآها . كيف حدث ذلك ؟ لقد تصفّح هذه المجموعة عشرات المرات . كل واحدة منها تحمل آثاراً من يديه وأصابعه . وعلى بعض منها ، سقط شيء من رماد سيكارته . ومع ذلك كله فهذه لوحة جديدة ، إنه يستطيع أن يجزم أنه ما رآها قط . هل كانت ملتصقة بغيرها ؟ هل أضيفت حديثاً الى المجموعة؟ هو عاجز عن معرفة ذلك، كعجزه عن تغيير أي شيء في العالم .

ـ هل تستطيع ان تحرق العالم فيتطهر ، ثم تحترق معه ؟

ـ سيطفئونه ، سيطفئونه سريعاً ، آلاف الناس على أهبة الاستعداد للقيام بذلك .

ـ لا محيص ...

ـ لا ...

قلت لك انظر الى هذه اللوحة الجديدة وكفّ عن الشرود . انظر بامعان ، حاول ان ترى كل أبعادها . لقد صنعت من قبل أن تولد بقرون . وستبقى بعد أن تزول أنت بقرون . أنت ظلّ عابر أمامها ، ثانية واحدة من أبدية .

ينظر الى اللوحة في فضول . هوذا رجل عار مغلول الى جذع شجرة كبيرة . جسده ينبض بالألم ، وعلى أسارير وجهه كآبة محفورة في أخاديد طويلة . جسده مرشوق بالنبال ، مملوء بها ، من بعيد تنهمر عليه النبال ، لقد صار الى دريئة تستقبل النبال ، بين نشوة الجنود وعذابه تمتد فسحة طويلة كالوجود ، وها أنتذا ترى من هنا قطبي الوجود .

تتحرك الخطوط أمامه وتبرز الحجوم . يرتعش القلب وينبض ، تتشنج العضلات ويترنح الرأس . تنطلق آهة كظيمة ويبقى جذع الشجرة يابساً . الخوذ الحديدية فوق رؤوس الجنود تبتعد وتتدانى . أمام بصره تمرق السهام . سهام كثيرة لا حصر لها . وكلما أصابه سهم تلوّى .

لقد اختفت مجموعة اللوحات ولم يبق لها أثر على حجره . لم يعد أمام لوحة : هوذا المشهد ماثل أمامه . جذع الشجرة قائم في ركن الغرفة ، في الزاوية . وعلى هذا الجذع قيّد الرجل العاري . وإما أصابه سهم رمح جسمه وارتعش. الدماء تسيل في خيوط دقيقة تصبغ جسده وتنسكب على بلاط الغرفة ، تتشكل حول قدميه العاريتين بقع من الدماء ، تتحول الجروح الى ينابيع صغيرة ثرة وتغذي البركة الصغيرة المنبسطة ، يرتفع الشعر الأشعث ، وتحدّق العينان الصافيتان العذبتان . من العينين ينبجس الألم والصفاء ، العذاب والعذوبة ، عينان شاهدتان على الحقيقة ، على الحقيقة والألم .

يصيح به :

ـ لماذا يفعلون بك ذلك ؟

تنفرج الشفتان الكليلتان عن آهة طويلة .

يقول له :

ـ إن ألمك كبير .

يجيبه بتؤدة وهو يقطع كلماته :

ـ عمّا قليل سأتجاوز الألم .

ويضيف بعد قليل :

ـ أما أنت . .

يتساءل الرجل :

ـ وماذا عني ؟..

يسود الصمت ، النبال تتوالى مسرعة . اختفى الجنود ، إلا أن نبالهم لم تنقطع . تنهمر غزيرة كالمطر .

يسمعه يقول :

ـ إذا لم تمت حبّة الحنطة ...

يتساءل في حسرة :

ـ أنت سعيد إذاً ، فموتك ليس مجانياً .

تبتسم العينان العذبتان ابتسامة الرضى والسعادة وتغتمضان. ثم يسمعه يقول :

ـ هل لك أن تأخذ مكاني ؟

ـ لست أستطيع ذلك ولا اريده .

ـ من الخير لك أن تحلّ محلي .

يطرق الرجل وهو يفكر ، يمتد تفكيره زمناً . ثم يرفع رأسه ويقول له :

ـ إنهم ينزلون بك عقوبة الإعدام ، وإني أراك تستشهد وستصبح قديساً . أما أنا فكيف أحتل مكانك ؟

- أنت تتعذب كل يوم، أما انا فلن يطول عذابي الى مابعد غروب الشمس .

يتحسس الرجل جسمه ليرى موضع النبال فيه ، فلا يقع النبال على أثر . في غمار ألمه يضحك منه . يضحك ملء صوته بقهقهة مدوّية :

تتحسس موضع النبال ؟؟

يطرق صامتاً خجلاً .

- إن النبال في قلبك ، في شغاف القلب فلا تمارِ ، وأنت تعرفها وتحسّ بها . أليس هذا ما تشعر به ؟ ومع ذلك ...

- إنني عاجز أن أحب كما احببت أنت ...

- ...

- العالم فاسد .

- فيك الفساد . لقد تقيّحت الجروح في قلبك منذ زمن بعيد . إذا اردت ان تعيش فيه وتبرأ فجابهه كما جابهته .

- الشر في العالم قديم ، وأنت مظلوم .

- جروح قلبك قديمة. وسيأتي يوم لايسيل منها إلا الصديد. حذار ، لا تقترب يداك من الصورة . إياك ان تمزقها ، فهي نسخة عن لوحة فنية ، عظيمة الأهمية بالغة الجمال . اتركها في مجموعتك .

يقذف بالمجموعة أرضاً ، ويهوي عليها بكلتا يديه . يمزقهـــا بعنف ، أقساماً صغيرة ، صغيرة جداً . ويذروها في كل اتجاه. ينثر الهواء الممزّق في أرجاء الغرفة وفي الصالة وفي انحاء الدار . المزق الورقية البيض تتحول الى قطع متجمدة من الدم الاحمر القـــاني . تتكاثر القطع وتتكاثف ، تحيط به من كل جانب ، تغمره حتى أذنيه. يسبح في بركة من الدم المتخثر ، يختنق صوته في تجاويف صدره ، ثم تنغلق عيناه وينام .

* * *

في الأعماق حديقة

حين وجد نفسه في وسط البحر أحس ببدء الخطر ، وبشيء من الضيق ، فترددت أنفاسه ثقيلة مضطربة كأن شيئاً يأخذ بخناقه . وضاعف الماء المالح من جفاف فمه ، وشعر بحرقة في عينيه ، ثم بدا له البحر تحته شديد القتامة ، غامق الزرقة . بعد ذلك تلبّدت السماء بالغيوم على حين غرة وانسكب المطر غزيراً غزيراً . تلفّت فيما حوله فلم يجد أحداً . هكذا فجأة خلا سطح البحر من كل شيء وكل كائن حي . لا إنسان ولا طفل ولا مركب ولا زورق . عند ذاك على الأرجح بدأت السماء تلتصق بالأرض تدريجياً ، وكفّ المطر عن الهطول ، وهدأ الموج أو كاد واختفت أشعة الشمس . وكان اختفاؤها مثاراً للدهشة ، فقـــد كانت الى حين قريب تملأ بأشعتها العالم ، فكيف تأتّى لها أن تسحب أشعتها بمثل هـذه السرعة ، والنهار ما يزال في منتصفه ؟ وخطر له أنّ الغيوم قد تكون حجبتها ، ولكن السماء خالية من الغيوم خلوّاً تاماً ، لا أثر لقزعة صغيرة منها في كبد السماء . ليس هناك إلا البحر والسماء . والسماء تشتدّ زرقتها

وكذلك البحر ، وتزداد منه دنواً ، حتى ليستحيل نقطة بيضاء بين صفحتين ملساوين زرقاوين .

كان عليه أن يعود ، كان لا بدّ له من أن يعود . ولكنه وجد نفسه محاصراً ، فالشاطىء الذي خلع عليه ثيابه قبل ساعة يبتعد ويبتعد حتى لا يبقى له أثر ، والشطآن الأخرى التي لا شك أنها موجودة في مكان ما ، بعيدة لا يراها ولا يلمحها . لم يعد هناك ريب في أنه صار نقطة صغيرة غير مرئية وسط بحر لا شطآن له . تصفو صفحة السماء ويتغير لونها ، اللون الغامق الكدر يتصفّى وتستحيل زرقته الى زرقة أخرى فاتحة شفّافة ، والبحر من تحته ومن حوله يتعمّق ويزداد قتامة ، انه يطفو على ماء مظلم . بدأ يشعر بالاعياء فاسترخت ذراعاه وانبسطت على الجانبين ، هادئتين تحنوان على الماء. يجسّ الماء بأطراف أصابعه . يتخذ الماء في إحساسه ملمساً خشناً صلباً ، ويتخلى عن ليونته ومرونته وانسيابه ، ويتفتت بين أصابعه كالرمال . ما أعجب هذه الرمال الزرق التي تمتد الى ما لا نهاية . وحين يحرّك الهواء صفحة الماء تتطاير قطع الرمال الزرق فترمي وجهه ، وتحزه وخزات خفيفة ولكنها حادة مؤلمة كرؤوس الابر.

قال « إني عاطر ! »

خطر بباله أن يبذل مجهوداً ما . ماذا لو وطىء هذه الرمال الصلبة وهرب من فوقها الى الشاطىء . انه ما يزال واثقاً بقدرته على

الجري . ما عليه إلا ان ينهض قليلاً ويندفع . أعجبته الفكرة . اتكأ بباطن كفيه على ما يحيط به وهمّ بالنهوض ، ولكنه لم يستطع أن يعلو كثيراً عن سطح البحر . فكرر المحاولة ، الا انه في المرة الثانية سقط سقوطاً عنيفاً حتى كادت المياه تغمر رأسه ، واوشكت الأعماق ان تبتلعه . فنحى الفكرة وأقلع عن المحاولة وجاءه صوت ملأ أذنيه كلتيهما : « لا مفر ، لن تستطيع النجاة » . حرّك رأسه في غضب يريد أن يطرد هذه الفكرة الحمقاء من رأسه ، وأن يقضي على هذا الصوت . قال في نفسه : « هذا وهم ، ولا يعدو أن يكون الطنين في اذني نتيجة لتراكم الماء فيها » .

كانت الشطآن قد اختفت اختفاء تاماً آنذاك ، فلم يعد يبصرها ، او لم يعد لها وجود على الاطلاق . وحيثما اتجه الآن فانه لن يجد الا المياه الرملية تحدق به والا هذه السماء التي توشك أن تنهد عليه .

لم يجد حاجة الى الاستنجاد . وكان قد أدرك أن ما من أحد سينجده وان كل محاولة للخلاص ميئوس منها مسبقاً ، فأقام في مكانه ذاهلاً ، ماذا ينتظر والى متي سيدوم انتظاره ؟

وفكر في البحر ، في اعماق البحر ، في مياهه المتراكم بعضها فوق بعض كالسماوات ، وبما في المياه من أسماك وحيتان وجزر مرجانية وحيوانات تعج بها اغواره السحيقة . وقال في دخيلة

نفسه : « ماذا لو غصت الى الاعماق ، ما دامت الشطآن أمست مجهولة ، بعيدة المنال ، وأنا وحدي محاصر هنا ؟ ؟ »

في تلك اللحظة عينها تناهى اليه الصوت الجلجل المدوّي :

ـ غص الى الاعماق ، الى اعمق الأعماق .

شعر بقليل من الاطمئنان ، وخيل اليه أنه لم يضع نهائياً كما سبق أن ظن . وما أن هم بأن يغوص الى اعمـاق البحر حتى فاجأه الصوت المدوي مرة ثانية يقول له بنبرة آمرة :

ـ لا .

وقدر أن الامور بدأت تختلط على حواسه ، وانتابه شعور بالألم أخذ يتسرب الى نفسه إذ فاجأه الصوت مرة أخرى يقول له :

ـ لا ، لا أقصد أن تنزل الى أعماق اليم ، بل الى أعماقك .

فصاح في دهشة وضيق :

ـ أعماقي ؟

صمت كل شيء من حوله وران على البحر والعالم هدوء جامد كالصخور . فرفع رأسه الى الأعلى ، الى السمت ، فوجدت السماء قـد تحولت الى بساط أزرق آخذ في الانخفـاض ، موشك أن يطبق عليه .

واسترجـع في ذاكرته الاصوات والـكلمات التي بلغت

مسامعه منذ حين ، فأحس بقشعريرة . وأفلتت منه هذه الكلمات :

ـ في أعماقي ؟

كان مفتتاً ممزقاً بين الدهشة والخوف والأمل .

عاد الصوت الجلجل يقول :

ـ ألا تذكر انك كلما ضاقت بك الحياة كنت تعود الى أعماقك ؟

ـ أجل اني لأذكر ذلك .

ـ وماذا كنت تجد في اعماقك ؟ هيا تذكر !

بدا الصوت مخيفاً هذه المرة . قفزت الى فمه صرخة حادة فقال في ما يشبه الفرح :

ـ كنت اجد في أعماقي حديقة . وكنت استظل في الأشجار فيها ، واتمتع بمرأى ازهارها والعيون التي تسيل منها ، والأطيار التي تغرد على الأفنان .

قال له الصوت :

ـ حسن ! ما عليك الا ان تعيد الكرة اليوم .

تساءل في نفسه : وهل اجد ثمّ الخلاص ؟ وقال بعد لحظات : ولم لا ؟ الم افزع اليها وقت الضيق والمحن من قبل ؟ الم اكن اجد فيها الراحة والطمأنينة ؟؟ وبدت له حديقته الغافية ذكرى بعيدة ،

كحلم رآه منذ سنوات ، كطيف لاح مرة واختفى لماذا لم يذكر .
الحديقة طوال هذه السنوات ؟

وبدأ يغوص في اعماق لجته ، في اغوار باطنه ، حيث ترقد الذكريات العذبة ، حيث يرقد تاريخه . وفي لحظات قصار كانه في اعماق اعماقه . ووجد الأشجار الوارفة تملأ الحديقة التي عرفها والفها وحدب عليها طويلاً ورعاها حتى بسقت على ذاك النحو الجميل . ههنا الحب القديم الذي كان يستعر ناراً ملتهبة ، وهنا الأنغام العذابه ، وحرارة الاشواق . وحركت الرياح سطح البحر فتعالى الموج وغطاه ، وزعزع وقفته . ما همّ ؟ انه يمسك بحبل نجاته ، وذاك اقوى من ان تزعزعه العواصف العاتية والرياح الهوج . كان عليه ان يتفحّص حديقته تلك ، وان يستعيد نعيم دفئها . وليفعل البحر ما يحلو له ان يفعل ، ولتعصف العواصف ما شاءت ان تعصف . اغمض عينيه مرة ثانية وبدات رحلته الى فردوسه السحيق .

حين لامس الأشجار كاد يصعق ، ولم يصـــدق ما راى . وعقلته الدهشة . الأشجار غير الاشجار التي يعرف . اهو مخطىء ؟ هل التبس عليه الحال ؟ هل ضلّ الطريق ؟ إنه لواثق بأن ليس ثمة طريق آخر غيره ! هذه القسوة القاسية في الاشجار لا عهد له بها . وحاول ان يحرك الاشجار اللدنة التي كانت تمايل لأوهى نسيم ، فما تزحزحت . كانت صلبة متيبسة كالجبال .

قال :

ـ لا شك في ان الزمن قد حجّر لحاءها .

وبدا ، لدهشته ،ان الأمر اخطر ممّا تصوّر. فها هي الاغصان والفروع اشد جفافاً وصلابة . عند ذاك تذكّر البلابل والعصافير التي كانت ترسل اغانيها الشجية وانغامها العذبة . وفي الواقع ، فقد رفع بصره الى الاغصـــان حيث ملعب البلابل فوجدها مملوءة بها اكثر عدداً من اوراق الاشجار الصفر الشاحبـــة ، إلا انه افتقد غناءها وتغريدها . اهي نائمة ؟

لم يصدق عينيه حين امسك بها فوجدها محنّطة ، لا صوت ولا حراك . مزّقه شعور بالالم حاد عنيف . كانت اجمل ما في الحديقة ، ولم يعد قادراً ان يتفوه بكلمة .

وحاول ان يستطلع موضع العيون حيث كانت تسيل المياه العذبة . كانت العيون قد شحّت . واما اقترب منها وجدها حفراً فارغة لا شيء فيها سوى التراب .

قال :

ـ لم يعد جميلا ما كان في الماضي جميلا .

بدا نور الحديقة يتبدّد ، ويحل محله ظلام آخذ في الانتشار وها هو ذا السواد يغمر الحديقة تدريجياً . فود لو يبكي . ولم تساعده عيناه على البكاء .. ولكن العينين متخشبتان وفي القلب حرقـــة .

كأنما كان يدفن جزءاً عزيزاً منه . تتهدّم الاشجار في الحديقة ، فتتساقط على الحضيض . وتتهاوى البـلابل من على الاغصان كثمار يابسة . لم يبق هناك إلا العشب تحت رجليه . والعشب يتصلّب ويتصلّب حتى يستحيل اشواكاً وابراً دامية، تحز رجليه العاريتين.

ويأتيه الصوت الجلجل :

- حارب الموج اذا استطعت .

يقفز فوق الاشواك محاولاً التغلب على الالم والنزيف .

يتفرّس في مواطىء قدميه : اهو عشب ام اشواك ؟ ويحد النظر برهة . ليس هذا الذي يطؤه شوكاً ولا عشباً تحوّل الى ابر. ايقن انه امام ظاهرة عجيبة . فصرخ صرخة اخيرة .

- ما هذا ؟

قبل ان يأتيه الجواب أحس بشيء يدور ببطء شديد تحت قدميه ، ببطء شديد جداً .

صرخ الصوت المدوّي :

- هذه ساعتك ، الم تعرفها ؟

- ساعتي ؟!

- أجل ساعتك ، وتلك أدواتها تحت قدميك ، وهي ماتفتأ تدور منذ أيام وشهور وسنين .

وفكّر في نفسه : ساعتي وأدواتها ودواليبها المسننة، كيف كبرت وتضخمت وبلغت هذا الحد ؟

قال في حسرة :

- وكيف ؟

لم يجبه الصوت هذه المرّة. بدأت الدواليب المسننة واضحة الآن . كانت تجتث جذوع الأشجار وجذورها ، وتسدّ العيون اذ توسل اليها أكوام التراب، وتطحن البلابل المرميّة عليها كأنها الرحى.

السماء تلتصق بالبحر ، ويضيع هو بينهما : نقطة صغيرة دامية تسيل منها خيوط دقيقة حمر ، فتتحوله الى بقعة صغيرة حمراء على سطح البحر ، ولا يلبث الموج أن يفتّتها ويبدّدها ويبتلعها .

★ ★ ★

«الفندق الكبير»

أنتَ الآن في هذا الفندق ، وما عليك الا ّ ان تسارع الى النوم ، فقد أمضيت يوماً طويلاً شاقاً . ما كان ينبغي أن تحل في مثل هذا الفندق الفخم ؟ ولكن لم يكن لك خيار في ذلك . ألم تبحث في فنادق المدينة عن مكان ، أي مكان تأوي اليه ولم تجد غرفة أو سريراً شاغراً ؟ ! هــــل غاب عن ذهنك الآن ان صديقك صاحب الفندق المتواضع الذي اعتدت ان تقيم فيه ، في العادة ، قــد اجرى بناء على طلبك عشرات الهواتف ، واتصّل بكل الفنادق التي يعرف بحثاً لك عن غرفة ما فلم يفلح في ذلك ؟

ـ لو انّ ذلك كله لم يحدث ...

ومــع ذلك فقد حدث ماحدث وأية فائدة في الحسرة على امور لست مسؤولاً عنها. كان من المتوقــع ـ بحسب تقديراتك ـ ان تصل الى مدينة (ن) ظهراً ، فالمسافة بـــين بلدتك وهذه المدينة لاتستغرق اكثر من سبع ساعات ، ولكن تعطل السيارة المفاجىء المتكرر ، لم يكن بالحسبان . ثم هذا الطريق الخرب المتآكل . لقد اضطر السائق الى ان يخفّف السرعة حتى ليظن الانسان انه يسير على

قدميه ، ورغم ذلك فقد انشق الدولاب فعمد الى استبداله بآخر .

أرأيت ؟ ان هذا كله كان شيئاً غير متوقع . وجاء اخيراً البحث الطويل ، وحقيبتك في يدك ، عن فندق ، أي فندق . ومن عجب ان تكون الفنادق كلها مملوءة . كان اصحاب الفنادق يظهرون برمهم حين تدق الجرس ملتمساً غرفة تبيت فيهـــا . ورذاذ المطر يتساقط رهواً على كتفيك وعلى حقيبتك وعلى ارض الشوارع ، بينما خلت الطرقات من السابلة او كادت ، واغلقت جميع المخازن ، واطفئت أضواء معظم المنازل . وآوى كل انسان الى فراشه . ليس لك صديق او قريب في هذه المدينة المترامية الأطراف فتطوق بابه على استحياء في مثل هذه الساعة وترجوه ان تبيت عنده هذه الليلة ، هـــذه الليلة وحسب ، ففي اليوم التالي ستعثر على فندق لاشك .

لاتقل ان اجر المبيت في هذا الفندق غال . فأنت مضطر ولـــن تضحي بأكثر من اجر ليلة واحدة وحسب . ثم ألم يخامرك شعور بالفرح كبير حين رأيت اضواءه تلتهب في عتمة الليـل . لقد بدا لك كالواحة ، عامراً بأضواء الثريات ، حافلاً بالرجال والنساء ، وامامه صفوف من السيارات تترجل منها مجموعات من الناس ، وتركب فيها مجموعات اخرى ، والخدم ذاهبون آيبون ، لايفتؤون يفتحون الابواب الزجاجية ويغلقونهـا ، ووقفت أنت ترقبهم بكثير من البهجة .

قلت في نفسك قبل قليل : « هل اجد مكاناً في هذا الفندق وقد عجزت عن العثور عن أية غرفـــة في أي من فنادق المدينة ؟ فلأجرب . هي ليلة واحدة لاغير ، ولأتمتع بهذه الرفاهية التي لم ارها الا في الافلام . »

غرف هذا الفندق عديدة ، وما اسرع ما اوجدوا لك هذه الغرفة . انها في الطابق الاول ، ولكن لاأهمية لذلك . حسبك انك وجدت المأوى ، وأي مأوى ! هذه الغرفة الجميلة هذه الستائر المخملية ، التي لم يعرفها منزلك ، وهذا السرير ؟ انه رحب وثير نظيف يلتمع التماعاً . وانظر الى السقف ، هذا الطلاء الجميل بألوانه البنفسجية المتناغمة . وفي وسط السقف تدلت ثريا ، ينعكس عليها ضوء مصباح السرير فتشع قطعها الزجاجية . زجاجية ؟ انها من الكريستال ، هي واحدة من اصغر الثريات التي تمـــلأ سقوف الابهاء . تحت رجليك قطعة من السجاد ، حمراء اللون تتوسطها بركة ، تمهل في السير عليها . المكان دافىء رغم برودة الطقس في الخارج . لست مغبوناً مهما أخذوا منك . أرى انك لم تحب هذا الموظف الكبير الذي طلب منك هويتك الشخصية . احساسك صادق ففي وجهه عنجهية لامبرر لها . لعله استصغر شأنك . فليكن . المهم ان تنام قرير العين بعد العناء الطويل ، ولست ارى ان تستيقظ قبل العاشرة صباحاً . وليكن هذا اليوم اجازة العمر .

حين قرع الباب كنت قد نزعت سترتك وربطة العنق والقميص والحذاء . قلت في نفسك : « ماذا يريدون ايضاً ؟ »

بدا الخادم محرجاً يتلعثم في كلامه :

- سيدي ، رأت الادارة ان تنقلك الى غرفة اخرى من غرف الطابق الثاني ، فقد وجدت انها بحاجة ماسة الى غرفتك هذه الليلـة .

- ولكنني على وشك ان انام ..

- ارجو ألا يضايقك ذلك ، والادارة تبلغك اعتذارها الصادق ، ولكنها بحاجة الى الغرفة بمناسبة عرض المسرحية ، وغرف الطابق الثاني كثيرة وأفضل من هذه. ثق ياسيدي بما اقول،فأنا اعرف هذا الفندق .

نظرت في دهشة وحيرة :

- أيةمسرحية ؟

عندها ابدى الخادم جهله بهذا الموضوع . ولكنه قال لك :

- سنقوم انا وزملائي بنقل امتعتك الى فوق بسرعة كبيرة . ماعليك الا ان تصعد الى الطابق الثاني .

وصعدت الى الطابق الثاني . وعندئذ بدأت متاهة العذاب. هناك التقيت بشاب من بلدتـك . لقد سررت كثيراً لرؤيته . قلت لـه :

- أراك هنا .

- لقد انتهى عملي اليوم وسأنصرف .

- وأنت تعمل في هذا الفندق ؟

- نعم ،ولكنهم قد يستغنون عني في الأيام القريبة القادمة. قال لك وهو ينظر الى جذعك شبه العاري :

- وانت ماذا تفعل ههنا ؟ ولماذا اراك في هذه الهيئة ؟

- لقد نقلوني الى غرفة في هذا الطابق ، وانا في انتظار ان يعطوني الغرفة الجديدة وينقلوا امتعتي .

- آه ، فهمت ، بسبب المسرحية .

واضفت انت في لهجة ظهر فيها ضيقك والمك :

حبذا لو ساعدتني في ذلك !

- الأمر بسيط جداً ، ولا يحتاج الى مساعدة . ان هي الا دقائق قليلة . ماعليك الا ان تتوجه الى هذا الموظف الواقف هناك .

واشار بيده الى موظف كهل يقبع امام منصة كبيرة .

ثم ودعك وخرج من باب جانبي .

ووقفت تنتظر وطال انتظارك . لم يكن آنذاك بد من ان تتوجه الى الموظف الكهل الواقف امام المنصة . قلت له بشيء من العصبية :

- لقد نقلوني الى غرفة في هذا الطابق ، فأين غرفتي وأين امتعتي ؟

لم يكن على علم بشيء من ذلك كله ، فابدي عجبه وشيئاً من الامتعاض :

- لم يبلغني احد شيئاً .

ثم نظر اليك في كثير من الازدراء ، كادت عيناه تنزعان البقية الباقية من ثيابك .

ـ كيف تتجوّل بهذا المظهر ، وفي مثل هذا الفندق ؟

نظرت إلى نفسك وشعرت بالخجل والضيق . قلت له :

ـ انتظر تعيين الغرفـــة ، ووصول ثيابي من غرفتي السابقة تحت .

وتفكّر ملياً ثم قال :

ـ من سيحضر لك الثياب ، والخدم كلهم منهمكون باعداد البهو السفلي وتهيئة المقاعد للمسرحية !

فصرخت :

ـ المسرحيّة ، كلّـكم تتحدثون عن المسرحيـــة ، أية مسرحية تعني ؟

نظر إليك باشمئزاز ولم يجب .

قدّرت أن عليك أن تنزل بنفسك لتجلب حقيبتك ومنامتك التي كنت قد أخرجتها على وشك أن ترتديها.

حين هممت بالنزول كانوا قـد سدّوا مطلـع السلّم الذي صعدت منه واعترض طريقك خادم فقال لك :

ـ انزل من السلم الخلفي .

وامتثلت لما قال ، وحين وصلت إلى الطابق الأول ضـاع المـكان عليـك ، ورحت تسير في ممرات شبه مظلمة ، ثم اذا بـك

تهبط بضع درجات . رحت تردد في نفسك « أين غرفتي ؟ أين غرفتي ؟ » .

وبدت لك من بعيد ، يحجبها المتفرّجون . بابها مغلق ، وقد أسدل عليه ستار ، ومن الجهة الأخرى تطلّ على مايشبه المنّصة . ظهر في الجدار باب يصلها بالمنصّة . كان القوم سكوتاً ، والستار مرفوعاً ، الا أن الصمت كان يخيم على المكان . المتفرجون نائمون والمنصة فارغة ، ولم يكن ثمة من ديكور .

وأردت أن تسير بين الصفوف لتبلغ الغرفة وتحضر منها أشياءك ، واعترضك الخدم مرة ثانية .

ـ انتظر ريثما ينتهي الفصل الأول .

وتسللت عائداً إلى فوق . كانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل . قلت في نفسك :

ـ سأنام هكذا بالثياب الداخليّة ، المهم أن أنام .

أردت أن تعرف أين الغرفة التي نقلت إليها . وتوجهت الى الموظف الكهل . كان رتــل من الناس المتأنقين في ثياب السهرة واقفين أمامه ، بعضهم يصرف الدولارات وآخرون يشترون الدخان . ولفت انتباهك بينهم فتاة فارعة الطول شقراء الشعر باهرة الجمال تضع على كتفيها شالاً أسود . التقت عيناك بعينيها فنظرت إليك نظرة اشفاق . أنت لاتحب نظرات الاشفاق هذه . ثم قالت لك :

ـ ارتد ثيابك على عجل وهلم معنا نشهد المسرحية .

قلت لها :

ـ انني نعسان ، وبحاجة الى النوم .

فضحكت ، كانت ضحكتها لطيفه غضة، ثم اختفت كالحلم.

قال لك الموظف الكبير بعد أن تفرق الناس من أمامه :

ـ لم يبلغوني شيئاً عنك ، ولم تحجز لك أية غرفة !

قال هذا ووقف ، ثم أخرج من جيبه رزمة مفاتيح فقفل أدراجه وتمتم :

ـ سأمضي لاشاهد المسرحية ، وسنجد لك مخرجاً بعـــد انتهائهـــا .

ووقفت في مكانك مغتاظاً متضايقاً متألماً .

وخطر لك أن تعود أدراجك الى غرفتك . وصممت على ذلك.

حين اجتزت الممرات المعتمة ووصلت إلى الطابق الأول كان الفصل الثاني قد بدأ ، فمنعوك من التقدم . سألك أحد الموظفين :

ـ هل معك بطاقة دخول ؟

ولما انعم النظر فيا هتف :

ـ أبمثل هذا المظهر تريد ان تحضر العرض المسرحي ؟

لم تجبه بكلمة لشدة غيظك . ووقفت لحظات ترقب مايجري

على المنصة : لم يكن هناك شيء على الاطلاق . فصعدت الى الطابق الثاني متلمّساً طريقك بأطراف أصابعك، إذ كان النور شديد الشحوب. وفي الطريق تعثرت بأحد الخدم فصرخت في وجهه :

ـ وهل تطول المسرحية ؟

كان هذا الخادم ، فيما بدا لك ، ثرثاراً ، فراح يحدثك عنها باسهاب ، ولكنك لم تفهم حرفاً مما قال . قلت له :

ـ كفى . كفى . انني أسأل هل هي طويلة ؟

فأجاب بهدوء :

ـ من يدري ، هي طويلة جداً أو قصيرة جداً . فصولها كثيرة جداً ، ولكن الفصل منها قصير جداً .

وحين وصلت الى الطابق الثاني الغارق في العتمة ، كنت قد اتخذت قرارك : أن تقتحم الغرف ، كل الغرف ، وتنام في أيها تجدها فارغة . وقفت تتفرّس في البهو حيث كان يجلس الموظف الكهل . البهو واسع وعلى جانبيه امتد عدد كبير من الأبواب المتشابهة المتناظرة ، بيضاء اللون ، مغلقة نظيفة . ولما دنوت من واحد منها تتلمس مقبضه صعقتك الدهشة : أنه باب مزيّف. وبسرعة رحت تتحسس الأبواب الاخرى كأنما أدركت ان هناك خطراً جسيماً يتهدّدك . كانت الابواب كلها مزيفة ، لقد صوّرت على

الجدران تصويراً ، إلا أنها لا تفضي الى شيء . عند ذاك شعرت بكثير من المرارة .

وقفت تنظر حولك في استياء وألم وضيق . كنت كمن يريد أن يحطم شيئاً . ولكن ما من شيء أمامه يحطمه . وارتفعت عيناك الى السقف في ما يشبه الضراعة . وآنذاك ، آنذاك على وجه الدقة رأيته في زاوية من زوايا السقف . كان أسود اللون كبير الحجم ، يملأ قبضة اليدين ، لم تر مثله في حياتك كلها وصرخت :

- في مثل هذا الفندق تعيش العناكب ؟

ويظهر أنه هو أيضاً قد رآك ، فراح يحث الخطا حتى وصل الى حيث أنت واقف . وصرخت مرة ثانية :

- يا للقذارة !

وفي دهشة بهرت أنفاسك ودفعت قلبك الى ان يضاعف من ضرباته ، رأيته يقترب منك ، نعم منك انت حتى وقف فوق رأسك تماماً ، كأنما كان يبحث عنك ، كأنما كان ينتظرك منذ الأزل .

وكاد يغمى عليك لا خوفاً بل اشمئزازاً .

في تلك اللحظة مدّ ارجله السود العديدة ، عشرات الاوجل فأحاط بك كأنما انت واقف في قفص . واستحالت ارجله الى ما يشبه اعمدة الحديد .

صرخت اخيراً :

ـ دعني ، ماذا تريد مني ؟

لم يجبك احد ، فرحت تصرخ وتستغيث ولكن لم يسمعك إنسان ولم يأت لنجدتك مخلوق .

فكّرت ان تقاوم ، ولكنك كنت اعزل . وحاولت ان تصرخ ولكن دوي التصفيق المستمّر في الصالة خنق كل صوت. واخيراً وقعت ارضاً مستسلماً للسموم التي تبثّها اطراف ارجله العديدة من حولك . وبدا نزعك الطويل .

وحين همدت حركتك ، كانت المسرحية قد انتهت .

* * *

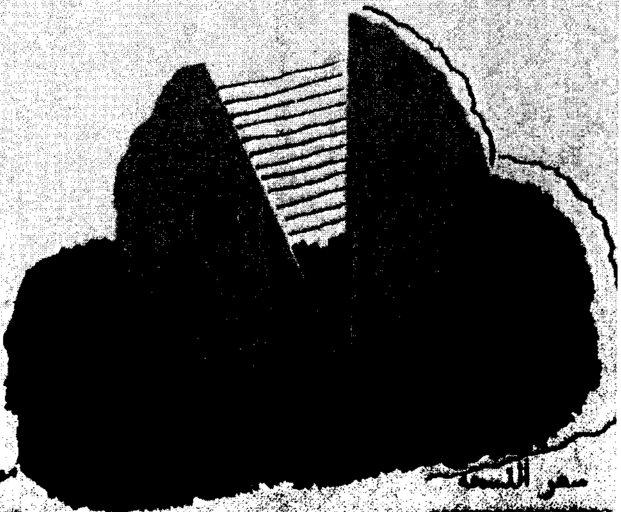
الفهرس

٢٠٠٠ / ٥ / ١٩٧٣

« الحقيقة أن ماحدث له كان فوق تصوره واحتماله ، وكان عليه في نهاية الأمر ، وهو الانسان الوديع المسالم أن يُقدم على ما أقدم عليه ، ذلك بأن قدرته على التحمل قد بلغت نهاية حدها ، ففقد طاقته على الصبر واتخذ ذلك القرار الحاسم » .

بمثل هذا الاسلوب المشوق ، المتوتر والباعث على التوتر ، ينسج الكاتب قصص هذه المجموعة في بناء فني جيد ولغة عذبة متينة ، كاشفاً لقارئه أعمق الأعماق ، منيراً الزوايا المعتمة للنفوس القلقة المضطهدة من أبطاله .

انها قصص اولئك المعذبين روحياً ، المطاردين بشعور مبهظ من الخوف الحقيقي أمام فساد الأشياء والصراع ضدها .



مطبعة وزارة الثقافة
دمشق ١٩٧٣

سعر النسخة
١٦٠ ق.س.ل